الدكتور أحمد زياد محبك

الوردة في مكانها

قصص

٢٠٢٥

العنوان: الوردة في مكانها

النوع: قصص

المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك

الطبعة الأولى: ٢٠٢٥

طبعة خاصة – حلب

هاتف وواتس ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

البريد الرقمي: mohabek@gmail.com

حلب – سورية

الوردة في مكانها

وهي تهمُّ بالانصراف، وقبل وصولها إلى الباب، ناداها:

– السيدة عفراء.

التفتت بهدوئها المعتاد:

– نعم، أستاذ راغب.

– هل أمر بك الأحد الساعة الثامنة مساء.

– أشكرك، سوف آتي وحدي، بسيارتي.

– أخشى تنسي، أو ألَّا تأتي؟

– هل يُعقل أن أغيب عن حفل تكريمك.

– انتظري، دقيقة، لي حديث معك.

نهض من وراء مكتبه، اقترب منها، بطوله الفارع، عيناه مثبتتان في عينيها، حدثها بهدوء، بموضوعية، واتزان.

– هذا آخر يوم لي في المؤسسة، بعد إحالتي على التقاعد.

ردَّت ببرود:

– أعرف، ويوم الأحد سيقام لك حفل تكريم في الشيراتون.

– ليس هذا الموضوع الذي أريد أن أكلمك فيه.

– ما الموضوع؟

– منذ عام وأنا أراسل عدة مؤسسات في الخارج، ومنذ يومين وصلتني رسالة في الواتس بقبول طلبي، والموافقة قد تصلني اليوم أو غدًا، عبر الواتس، هي قيد التوقيع.

– أهنئك، وأرجو لك التوفيق، هل تسمح لي بالانصراف؟

– انتظري، تفضلي هنا إلى هذا المقعد، وسأقعد هناك أمامك، تفضلي.

تتردد، تقعد متذمِّرة.

– بسبب العقد الخارجي اعتذرت من المدير العام عن التمديد لي هنا في المؤسسة بعقد عمل، وفضلت التقاعد، مع أنه يحق لي التعاقد حتى سن السبعين.

– أعرف هذا، والحقيقة التقاعد في سنة الخامسة والستين قرار خاطئ.

– القرار عادل، وهو أكثر عدلًا حين جعل تقاُعَد المرأة في الخامسة والخمسين.

– هذه إهانة منك ومن القانون، هل المرأة قاصرة أو ضعيفة؟ حتى تتقاعد قبل الرجل.

– لا، لا أقصد هذا، أقصد أن التقاعد يعطيها الحرية لتبدأ حياة جديدة.

– أستاذ راغب، هل دعوتني لكي نناقش قانون التقاعد؟

– ليست هنا المشكلة، أنا سعيد بإحالتي على التقاعد.

– أين المشكلة؟

– بغض النظر عن كل ما كان بيننا في السنوات الخمس الماضية، أودُّ أن أقول لك...

– لم يكن بيننا أي شيء.

– بل كان، كنت أثقل عليك بالمزاح، على غير عادتي، وحصل سوء تفاهم في بعض المواقف، في أكثر من مرة.

– سامحتكَ، لا تعتذرْ، وأنا نسيت.

– أنا لن أعتذر، كل المواقف كانت نتيجة ظرفها، وأنت لا يمكن أن تنسَيْ.

– بل نسيت.

وتنهض

– هل تسمح، ما عدت أعرف ماذا تريد؟

ينهض يقف قبالتها:

– منذ عشر سنوات، أنت نذرتِ حياتك لتربية أولادك، ابنك فهد تخرج في الجامعة وعنده اليوم بيته ووظيفته، وابنتك بلغت العشرين وهي على أبواب التخرج.

– أعرف هذا، وأنا أعتز به.

– وأعرف أنك رفضت الزواج بعد وفاة زوجك.

– ماذا تودُّ أن تقول؟ لماذا هذا التمهيد.

– أرجوك، خذيني في حلمك، وأنا مثلُك، قبل سبع سنوات، توفيت زوجتي، أي قبل تعيينك سكرتيرة في مكتبي بسنتين، ولم أفكر في الزواج، من أجل أولادي.

– أعرف هذا، وأقدِّر وفاءك لذكرى زوجتك، اسمح لي، تأخرت عن البيت.

– ما رأيك في أن أكون بالنسبة إلى أولادك بدلًا من الأب، وأن تكوني أنت لأولادي بدلًا ...

تقاطعه:

– فهمتُ، أولادي لم يعودوا بحاجة إلى أب، وأولادك أكبر من أولادي، وليسوا بحاجة إلى أم، ولا يمكن لأي أحد أن يكون بديلًا من الأم أو الأب، أعتذر إليك.

– لا تستعجلي، هذا طلب مني، وليس مجرّد كلام، وكنت سأطلبه من قبل، لكن أجلته إلى حين تقاعدي، وليس من أجل الأولاد، من أجلنا نحن، ومن الممكن أن تستقيلي، ونسافر معًا.

– أحييك، وأشكرك، وأقدِّر عَرْضَك، تقدَّم إليَّ أمس شاب في الخامسة والثلاثين، أصغر مني بسنتين، عزب، غير متزوج، وليس عنده أولاد، وطبيب جراح، فاعتذرت، لم أوافق.

– أنا في الخامسة والستين، لن أعتبر كلامك إهانة لي، أقبله، وليس فيه إساءة، وأقول: من الطبيعي أن يتقدم لك كثير

مِن الرجال، مِن أعمار مختلفة، ومِن الطبيعي أن ترفضـــي، الزواج قَدَرٌ إلهي، واختيار.

– صدقت، كان قدري أن أتزوج وأنا في السابعة عشرة، وكان من قدري أن يتوفى زوجي بعد عشـــر ســـنين، وأنا في الســـابعة والعشـــرين، وقد اخترت ألا أتزوج بعده، أرجوك، تأخرت.

يقف أمامها، ظهره إلى الباب، وكأنه يسده، ولا يريد لها الخروج:

– أنا قدرُك، وإن كنتُ في الخامســـة والســـتين، وأنتِ اختياري.

تضحك، تقهقه، تتكلم:

– العمر ليس هو المشكلة، أنتَ لست قدري، وأنا لستُ اختيارك، عندك هنا من الموظفات الصـــبايا مجال أوســـع للاختيار.

تحاول المضـي نحو الباب، لكنه يقف في الباب، يسدُّه بيده، وهو يقول مؤكدًا وواثقًا:

– أنتظرك في الشـــيراتون، اليوم هو الخميس، أمامك ثلاثة أيام للتفكير، ســأعلن في حفل تكريمي قرارك أنت بتقديم استقالتك، وقبولي أنا للعمل في الخارج، وقرارُنا معًا الزواج.

– هذه كلها قرارات تخصُّك أنت، أنا لا علاقة لي بها.

يضيف:

– عيناك تقولان غير هذا، أراك في الشيراتون.

يسمح لها بالخروج، يقف يتأملها، وهو يتوقع أن تلتفت إليه مودعة.

*

في السادسة خرجت من كارفور، وهي تحمل بدلة سهرة بيضاء، ارتدتها، قعدت أمام المرآة، بدأت في أخذ زينتها.

ليته يمرّ بي، أظنه سيمر بي، بل أعتقد، لا بد أن يمرَّ بي، كلامه لم يكنْ مجرد عرض، كان طلبًا حقيقيًّا، سوف يفاجئني، سوف يقرع الباب، وأنزل على الدرج ويدي في يده، وأقعد إلى جواره في سيارته السوداء.

أخذت هاتفها الجوال، في الواتس كتبت إليه رسالة: "اعتذاري إليك، لن أتمكن من الحضور".

أغلقت الشبكة، لم ترسلها، حفظتها في المسودات.

بدأت تكتب رسالة ثانية: "عرفتك طوال خمس سنوات، جادًّا، مستقيمًا، عرفتك صاحب طموح، وإرادة، عرفتك ناجحًا ومتميّزًا، الموظفات حدثنني عن الجِدّية الصارمة في تعامُلك معهن، وعن قسوتك وحدَّةِ طبعِك، فور دخولي عليك، في أول يوم، رميتني بنظراتك، أحسست في عينيك ما هو مختلف، ثم رأيتك تمازحني، وتستفزني، حدثتني الزميلات عن عفتك وطهرك ونقائك، ولكنك كنت معي جريئًا جدًّا، مرحًا جدًّا، تمازحني، وتلمِّح لي أحيانًا بأمور لا تخلو من استفزاز أو

إثـارة، أدركـت أنـك تختبرني، أو تمـازحني، ولكن في براءة وطهر وصـــفاء، أمد إليك يدي أناولك الملف أو الأوراق، ما من مرة مسست يدي، كنت أتمنى لو تلمسها، كان إعجابي بك يزداد، امرأة أنا، ولي قلب، ولي روح، ولي جســـد، رأيتك في الحلم عدة مرات، ولكن، لا يمكن أن أبوح لك، لماذا لم تقدِّم لي هذا العرض قبل ســـنة، قبل ســـنتين، لعلك انتظرت حتى التقاعد، حتى لا يُقال أحب سـكرتيرته، سـامحني، أنا تعاملت معك بجفاء، سنوات الحزن أرهقتني، ليتك تمرّ بي".

رسالتي طالت، هذه ليست رسالة، كيف تورطت.

تحذف الرسـالة. تكتب رسـالة أخرى: "اعذرني، تأخرت، في ثوب الزفاف الأبيض، أنا قادمة إليك فورًا".

*

في الســـابعة والنصـــف خرج من الكارفور يحمل بدلة السهرة.

في الثامنة تمامًا، دقيقًا في مواعيده، كعادته، وصل إلى الشيراتون، دخل في بدلة سوداء، وقميص أبيض، وعقدة عنق على شكل فراشة، وفي عروة السترة، في الجانب الأيسر وردة حمراء.

لا ينقصني سوى أن تكون إلى جانبي. لماذا لم أمرّ بها في بيتها؟ لماذا لم أحضـــرها معي؟ لو مررتُ بها كنا دخلنا معًا، وأنا أمسك يدها، بل ذراعي تحت ذراعها.

من حول المائدة المخصّصة لتكريمه نهض زملاؤه الثمانية أعضاء مجلس الإدارة، رحَّبوا به. الكرسي على يمينه شاغر، تأخرتْ، وليس مِن عادتها، لا بد أن تأتي، هي وعدت.

شكر لهم حضورهم. بدأ يمازحهم، دهشوا، كأنه ليس هو، من أين له هذا الأسلوب في الممازحة؟

جهاز هاتفه أعطى إشارة وصول رسالة، نظر في الجهاز، رسالة من الخارج، وضع الجهاز على المائدة، عرف أنها رسالة الموافقة.

مد يده إلى ربطة عنقه: الفراشة، أحس بها طارت، حلقت في فضاء المطعم، لمس الوردة في عروة سترة، لكنه ما لبث أن ضبط أعصابه، هدأ، استقر، أخفى ابتسامة صغيرة.

ألقى كلمة توجَّه فيها بالشكر إلى المدير العام الذي اقترح من مكتبه في العاصمة إقامة هذه الحفلة، ووعَد أن يبعث إليه رسالة شكر عبر الواتس، شكر المحاسب عضو مجلس الإدارة المكلف بدفع مصروف السهرة، ثم تكلم فقال مخاطبًا أعضاء مجلس الإدارة:

– ما رأيكم؟ سنوفِّر على المحاسب النفقات، سنكتفي بالسلطة وكأس عصير، لا مقبلات، ولا طعام، ولا خبز ولا لحوم.

وافقوه الرأي، وضحكوا.

أعطى الهاتف الجوال إشـعارًا بوصـول رسـالة جديدة، نظر بطرف عينه إلى الهاتف الجوال، هو إشـعار جديد يؤكِّد وصول رسالة من الخارج.

نظر أحدهم في ساعة يده، ولم يتكلم.

أحس أنها تأخرت، لم ينظر في ساعة يده، ضبط توتره، علّق على حركة زميله الذي لم يتكلم:

– قد يكون لها ظرفها الخاص.

وصله إشعار بالهاتف عن وصول رسالة، فتح الرسالة.

الفراشـة في عنقه أصـبحت شـوكة تخز حنجرته، جفَّ حلقه، مدّ يده إليها، كاد يفكها، لكن يده اتجهت إلى الوردة، تحسسها، ثم تناول كأس ماء، أخذ رشفة.

النادل إلى جواره يسأله:

– سيدي، هل تنتظر أحدًا؟

ردّ على الفور متجاهلًا سؤاله:

– اسأل الزملاء عن طلباتهم.

همَّ النادل بسـحب الكرسـي الذي إلى جواره، ومد يده ليحمل الصحن المقابل للكرسي الفارغ، قال له:

– أرجوك، اترك الكرسي في مكانه، واترك الصحن.

نزع الوردة من عروة سـترته، وضـعها في مكانها إلى جوار الصحن الفارغ.

جدتي بديعة

ونحن ننتظر في الدَّور لختم جواز السفر، قلت لزوجتي:

- من حقك أن تذهبي أولًا إلى أمك، لزيارتها، عشر سنوات ما رأتك فيها، وخذي معك ولدنا سامر، سيوصلك أخي وحيد أولًا، ثم يوصلني إلى بيت أختي.

- هذا من غير المناسب، سأذهب معك، لتعزية أختك أولًا، ولا تنس، هي أيضًا ابنة عمي، مثلما أنت ابن عمي، ننام عندها ليلة، وغدًا الجمعة نزور كلنا قبر زوجها، ثم تذهب أنت إلى أمك، وأنا أذهب إلى أمي، وفي المساء تمر بي، لنرجع إلى أمك وننام عندها.

قلت لها، ونحن ندفع معًا العربة المثقلة بالحقائب، وسامر إلى جوارها:

- هناك سبب آخر، لا أريد لسامر أن يرى فورًا مظاهر الحزن في أول مرة يزور فيها الوطن، أريده يستمتع برؤية جدته في الواقع، وهو الذي كان يراها في شاشة الهاتف الجوال.

- لا تقلق، هو يعرف عن الحياة والموت والفرح والحزن أكثر مما كنت تعرف يوم كنت في عمره، هو طوال الوقت في الشبكة العنكبوتية.

دخلنا عليها في غرفتها الصغيرة، أنا وأبي، والسواد يجلّلها، من فرقها إلى قدمها، قدماها تغوصان في جوربين أسودين، وهي تنتعل خُفًّا أسود، تتوكأ على عصا، ظهرها محدودب، وهي تنحني نحو الأرض، قبل أسبوع رأيتها، لم تكن بمثل هذا الانحناء، كأنها تبحث عن شيء في الأرض، رفعتْ إلينا وجهها، رأيته، أبيض مصفرًّا، خداها غائران، النتوء في عظام الخدين يكاد يثقب الجلد المتجعد، كم كنت أحبّ جدتي، ولكن أحيانا كنت أخافها، لا أعرف لماذا؟ لو كان أنفها أطول قليلًا، ولو كان معكوفًا ومدبَّبًا، لكنتُ حسبتها ساحرة، مثل صورة الساحرة التي تمتطي مقشة وتطير بها، المذياع إلى جوارها مغطى بملاءة سوداء، المرآة خلفها مجللة بملاءة سوداء، الثريا المدلاة فوق رأسها ملفوفة بشبكة سوداء، صورة جدي بالأبيض والأسود محاطة بشريط أسود، نظرته كابية، كأنه نائم، انكببت على يدها أقبلها، عروق يدها زرقاء بارزة، سمعتها تقول لأبي: "لماذا أحضرتَ الصغير معك، لا أريده أن يرى هذا السواد والحزن، وأنا قلت لك أمس، لا تأخذه معك إلى المقبرة، لا ضرورة لأن يرى المقبرة والقبور، ليس فيها سوى شواهد حجرية مخيفة، وأطيان ووحول، والبرد اللاسع، أخشى عليه من البرد"، بعد ذلك، بعد شهر أو أكثر، اصطحبني أبي معه إلى المقبرة، كان العشب الأخضر يتألق فيها تحت أشعة الشمس الدافئة، لم تكن كما وصفتها جدتي، لعبت فوق القبور، واستمتعت بها، وركضت مع

ابنة عمي هناء فوق المصاطب الحجرية، هناء كانت أصغر مني بخمس سنين، واختبأتُ أنا وراء الشواهد، أضاعتني هناء، وبدأت تبحث عني، ثم فاجأتها، وقطفنا شقائق النعمان، صعدتْ هناء فوق مصاطب عالية لقبر فاخر، ثم أرادت النزول، فخافت، أمسكت يدها، أحسست بها دافئة، ناعمة، وحين قفزت احتضنتها.

ألتفتُ إلى زوجتي أقول لها، وسامر إلى جوارها:

- هل نسيتِ يوم احتضنتك، وأنت تقفزين من فوق القبر.

تنظر إليَّ، مدهوشة، وتسأل:

- أي قبر؟

ثم تضحك، وتعلق:

- آه، أين ذهب خيالك، تذكرت، في ذكرى مرور أربعين يومًا على وفاة جدك، جدي، لعبنا في المقبرة، وركضنا بين القبور، كنا في فصل ربيع، وكنا أطفالًا، لا نعرف معنى الموت.

- لو كنت أملك موهبة نجيب محفوظ كنت كتبت رواية ضخمة عنوانها "الحب الكبير".

- وهل تسميه حبًّا؟ هو لعب أطفال.

- هو لعب بريء، أجمل من لعب الكبار، ويسمونه حبًّا.

لا أنسى، ذكرى الأربعين، رأيت قبره المكلل بالزهور، وقد مد إلى جواره بساط، قعد عليه أربعة شيوخ، وجوههم بيض، لحاهم بيض، عماماتهم البيض على رؤوسهم كأنها طيور، سمعتهم يترنمون بأناشيد جميلة، سمعت أحدهم يتلو آية كنا

حفظناها في المدرسة، الآن نسيتها، كنت في عمر ابني سامر الآن، بل أصغر، كنت في الثامنة، غدا أزور قبر برهان، ولا أظن أننا سوف نبقى إلى ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته، لا بد من العودة إلى باريس، ولا أنسى، جدتي قدمت لي يومئذ قطعة من الحلاوة الطحينية سمراء قاتمة، تناولتها على مضض، مع أني أحب الحلاوة الطحينية، قالت لي: "هذه الحلاوة وزعناها على روح جدك، نحن نسميها: فتح فم"، لم أفهم معنى فتح الفم، صبّتْ لأبي في فنجان صغير قهوة سوداء، غمرتني بعبقها القوي، تمنيت لو أتذوقها، كنت أحب الحلاوة الطحينية، ولكن ليست هذه، كان أبي يحضر لنا الحلاوة الطحينية بيضاء محشوة بالفستق أو الجوز، عندما خرجنا من زيارة جدتي سألت أبي: "ما معنى فتح الفم؟"، قال: "عندما يموت شخص، يحضر أهله وأقاربه، ويجتمعون، وينتظرون إلى أن ينتهوا من الغسل والتكفين، وينقل إلى المقبرة ويدفن، ثم يرجعون من المقبرة إلى البيت للتعزية، وهنا يقدمون للضيوف قطعة من الحلاوة الطحينية السمراء، لأنهم أمضوا وقتًا طويلًا من غير طعام وتعبوا"، قلت:" لكن أنا ما أحببتها، أنت تحضر لنا في العادة الحلاوة الطحينية بيضاء محشوة بالفستق والجوز، لماذا يوزعون السوداء"، ضحك، وقال: "لأنها أرخص"، كان ذلك قبل خمسين عامًا، أو قبل اثنين وخمسين عامًا، بالضبط، يا إلهي، لا أكاد أصدق، نصف قرن، كنت أحب جدي أكثر، جدي عبد العزيز، رحمه الله، لحيته

بيضـــاء، يخرج من جيبه دائمًا قطعًا صـــغيرة من ســـكر النبات، ويطعمنا، أقبل يده، ألثمها، تدغدغ فمي الشـعرات البيض الخشـنة في ظاهر يده، أشم رائحة زكية، هي عطر الورد.

أخي وحيـد ينتظرنـا مع زوجتـه، تعـانقنـا، ودخلنـا في السيارة، أنا إلى جواره، وزوجتي هناء إلى جوار زوجته رغد في المقعد الخلفي، سـامر إلى جوار أمه يطل من النافذة على شـوارع المدينة.

أذكر جيدًا، أبي رحمه الله، ســـأل جدتي: "حدثينا، هل تزوجت أبي عن حب؟"، مســـحت عينها براحة كفها، وقالت: "ما عندي نفْس لأتكلم، حزني على والدك كبير، أنت لا تعرف، ماذا أحكي لك"، وصـــمتت، ثم قالت: "والدك عبد العزيز، رجل، لمّا جاء ليخطبني كان في الأربعين، رجل، له شـــاربان عريضـــان لونهما أشـــقر، وجهه مدوّر، مثل رغيف خبز خرج لتوه من التنّور، أعجبني، وأنا بنت خمس عشـــرة ســـنة، بيننا خمس وعشرون سنة، فرحت صار عندي بيت، لكن يشهد الله ما ظلمني، عشـت معه أربعين سـنة، ما أزعجني فيها بكلمة، لقيت عنده من الدلال ما لقيت مثله في بيت أبي، يرحم الله الاثنين، لكن، تركني وراح، سبقني، كنت أدعو الله أن أسبقه، ضيعني، في كبري، آه، يا عبد العزيز، بعد عشـرة أربعين سـنة تتركني وتذهب، وأنا في الخامســـة والســـتين، لِمَنْ تركتني يا عبد العزيز"، وأخذت تبكي، عندما خرجنا ســـألت أبي: "لماذا تركها وراح؟ أين ذهب؟ وكيف

ضـيّعها؟"، ضـغط أبي بيده القوية الكبيرة، على يدي الصـغيرة، وقال: " تقصد مات".

أقول لأخي، وهو يقود السيارة:

- سـامحونا، جئنا لتعزيتكم بعد شـهر من وفاة المرحوم، تعرف ظروف العمل، لم يكن من السـهل أخذ إجازة، ولا من السهل الحجز في الطائرة.

- حتى الآن لم تتقاعد؟

- تقاعدت، لكن تعاقدت مع مشـفى خاص، وزوجتي ما تزال على رأس عملها، هي أصغر مني بثلاث سنين.

- لا، أنا أصغر منك بخمس سنين.

تعلق زوجة أخي:

- أنا أصغر من وحيد بعشر سنين، ولكنه دائما يقول لي: أنت عجوز، أنت أكبر مني.

أخي وحيد لا يبالي بكلام زوجته، يكلمني، فيقول:

- كنت أظن أنك ستتقاعد وتطوف العالم.

- تكاليف الحياة ما تركت فرصـة للتقاعد، لا تتوهّم، ولا تصـدق الدعايات، السـياحة غير متاحة لكل الأوربيين، هي للأغنياء فقط.

وأحاول الدخول في الموضوع:

- كيف توفي زوج أختك؟

- لماذا تقول زوج أختك؟ قل زوج أختي، هي أختك مثلما هي أختي.

وتتكلم زوجتي:

- ما من مشكلة، كيف مات زوج ابنة عمي رهف.

- كما يتوفى كل الناس، لفظ الروح، من فمه، ومات.

- هذه عاداتك، كل المواقف تقلبها إلى نكت ومزاح.

أكاد أضحك، أعرف أخي ودعاباته، أي موقف كان يحوله إلى نكتة، حتى في حالة الغضب، هو لا يغضب، أو لا يظهر عليه الغضب، لا فائدة من سؤاله.

رهف أختي الصغرى، في الأربعين، مثل زوجها، مؤلم جدًّا أن يتوفى عنها زوجها في هذه السن المبكرة، لم يعيشا معًا سوى خمسة عشر عامًا، زوجها في عمرها، في عز الرجولة، برهان تقدم إلى خطبتها قبل خمسة عشر عامًا، لا أكاد أصدق، كانت في الخامسة العشرين من عمرها، ربيع العمر، زميلها في الجامعة، أعجبنا به جميعًا، وافقنا عليه، وأول من وافق عليه أنا، لو كان أبي على قيد الحياة، يرحمه الله، أظنه لم يكن ليوافق، أمي وافقت، وفرحت، عندما علمت أن بينها وبين برهان معرفة منذ أيام الجامعة، أنا كنت في باريس، أتخصص في الجراحة العامة، كتبت لي تقول: "أعرفه في الجامعة"، فهمت فورًا، هو زواج عن حب، من الطبيعي أن يتعارفا، وهما معا في كلية الطب.

أسمع سامر يعلق:

- السـيارات عندكم يا عمي كثيرة، أكثر مما هي عندنا في باريس.

أخي وحيد يرد:

- نحن سبقناكم في التطور.

زوجة أخي تضحك، تعلق:

- لا تخدع الولد، قل له: هي كثيرة بسبب الفوضى.

زوجتي تعلق:

- لا تقلقي، سـامر قرأ كل شـيء من خلال الشـبكة عن الوطن، يعرف السـبب، شـوارع قديمة ضـيقة، وغياب التنظيم الحقيقي.

أعلق:

- دعونا من هذا كله، كيف حال أختك، أخي وحيد، كيف هي معنوياتها؟

- بهجة، فرح، سـرور، كل النسـاء يفرحن إذا مات أزواجهن، اسـأل زوجتي، إذا كان فرويد قال لدى كل شـاب عقدة قتل الأب، فأنا أقول كل زوجة عندها عقدة قتل الزوج، تتمنى موته قبل أن يموت.

زوجته تعلق:

- لا تبالغ، فرويد لا يقصـد كل الناس، يقصـد المرضـى فقط.

يرد:

- كل الناس مرضى.

يسكت، ثم يضيف:

- طبعًا أختك رهف مثل باقي النســـاء، عندها عقدة قتل الزوج، لكنها حزنت، حزنها عليه أشد ما يكون، هل تعرف لماذا؟ لأنه مات، قبل أن تقتله.

زوجتي تعلق:

- لا تظلم أختك.

يرد عليها:

- يا ابنة عمي، أختي امرأة، مثلها مثل كل نســاء الأرض، هل هي استثناء.

أحاول الضحك، أعلق:

- سامحك الله، قل لي، بجد، كيف حال أختنا.

- تسألني عن أختك، ألا تلاحظ، البلد كلها حزينة لفقد زوج أختك، فكيف هي، الحزن عام وشـــامل الكرة الأرضـــية كلها، والسموات السبع.

زوجة أخي تعلق:

- اصـــبر، حتى يرى أخته أولا، والبلد، هو ما رأى أي شيء.

أضاف أخي:

- بعد أن يرى أخته رهف، سيحزن أكثر.

لم أدرك مغزى كلامه، ما بالها أختي؟ هل هي حزينة، حتى بعد مضي شهر على وفاة برهان؟ هل هي مثل جدتي بديعة؟

ساد صمت مريب، لم يعلق أخي، ولم أعلق أنا.

حاولت بعد قليل تغيير الجو:

- وكيف ابنتها منى؟

- عمرها عشر سنين، في عمر ابنك سامر، أو أكبر بسنتين.

- أعرف، هما أصدقاء في الفيس، ولكن أردت الاطمئنان.

- هل رأيت؟ أنت تعرف، ولكن تسألني، هكذا، أحادينا كلها ثرثرة، غير خاضعة للمنطق، ولا مبرر لها.

تضيف زوجته:

- مثل حياتنا.

أخي يصفق، تاركا مقود السيارة، ويعلق:

- صدقت، هذه أول مرة تنطق فيها امرأة بالحق.

سامر يشير من نافذة السيارة إلى جموع محتشدة على الرصيف، ويسأل:

- عمي، عمي، لماذا هذا الزحام هناك على الرصيف.

ويجيبه على الفور:

- ينتظرون دورهم في الموت.

ننفجر جميعًا ضاحكين، طبعا عدا وحيد وسامر. زوجة أخي تعلق:

- حبيبي سامر، اليوم خميس، وانصرف هؤلاء اليوم من أعمالهم، وغدًا يوم الجمعة، ينتظرون حافلات تحملهم إلى بيوتهم في القرى والأرياف، هم يذهبون إلى بيوتهم ليروا أولادهم، ويستمتعوا بعطلة يوم الجمعة.

أخي وحيد يغمغم بصوت خشن مسموع كأنه يأتي من عمق الفضاء:

- في كل الأحوال هم ذاهبون إلى الموت.

أخي وحيد مدرس لمادة الفلسفة، متأثر بكتاب شوبنهور، سقوط الحضارة، أعارني إياه، أبقيته عندي سنة، ثم أعدته إليه، لم أقرأه.

وينعطف أخي بسيارته يمينًا، ويمضي نحو غربي المدينة.

- إلى أين أنت ذاهب بنا؟

- سأخطفك، أنت وزوجتك وسامر، لا شك أن في حقيبتك دولارات.

زوجته ترد نيابة عنه:

- زوج أختك، يرحمه الله، انتقل إلى الحي الغربي، إلى أرقى حي في المدينة، اشترى شقة فاخرة من ست غرف.

أخي يعلق:

- طبعًا، طبيب وطبيبة، يعملان ليل نهار في المشافي الخاصة، يستطيعان شراء أفخم شقة في الحي الغربي.

أعلق:

- ليس بالضـــرورة، هذا أنا وهذه زوجتي هناء، ثلاثون عامًا ونحن نعمل في أكبر مشفى في باريس، وما استطعنا شراء شقة.

- طبعا، مكانة الطب في باريس، غير مكانة الطب في بلدك، هنا في الوطن، الفيلسوف عندكم له مكانة، أما الطبيب، فلا، بعكس بلدنا، منذ عشرين عامًا وأنا أفكر في فلسفة التاريخ، وأعد بحثًا عن القوى الفاعلة في التاريخ.

- وهل وصلت إلى شيء؟

- لم أصـــل، لذلك ما أزال أعيش مع زوجتي في شـــقة مستأجرة.

زوجته تعلق:

- لو كنت تفكر في فلسفة التاريخ حقًّا لتغير كل شيء، أنت تفكر فقط في فلسفة الموت.

يوقف السيارة أمام بناء فخم، وهو يقول:

- تفضلوا، الشقة في الدور الأول.

ننزل أنا وزوجتي وابني، تنزل زوجته، تصعد في السيارة إلى جانبه.

- لن تدخل معنا؟

- لا أحب الموت.

تعلق زوجته:

- هل تصدق؟ لم يشارك في تشييع زوج أخته برهان.

أسأله:

- والحقائب؟

- سأوصلها إلى بيت أمك، وسأفتحها، سآخذ هديتي.

- أحضرت لك مؤلفات هيغل كلها مترجمة إلى الفرنسية.

- لم أصدقه، أحمق، مثالي، الدولة عنده هي أقصى غايات التطور، وكل التاريخ، من قبل ومن بعد يؤكد عكس ذلك.

- أنت لا تحب غير شوبنهور.

- لأنه ذكي، وصادق، السقوط، سقوط الحضارات هو نهاية التطور، الموت هو نهاية الحياة.

على الدرج تقول لي زوجتي:

- لماذا كل هذا التشاؤم عند أخيك.

- أنت ابنة عمه، وتعرفين، هكذا كان منذ صغره، ثم جاءت الدراسة، دراسة الفلسفة.

- كان الله في عون زوجته.

- والمسكينة لم ترزق منه بولد، وتعيش معه، ترفض الطلاق، وتعرف أنه هو المسؤول.

- الشقاء ممتع.

- هكذا هي المرأة في مجتمعنا، تقنع، ترضى، تسكت.

في الباب تستقبلنا أختي رهف.

أضمها إلى صدري، أربت على ظهرها، أقبل جبينها، وندخل إلى غرفة الضيوف.

جميل أن يكون للرجل أخت، يضـــمها إليه، يحس دفئها وحنانها، يمنحها عطفه، يحس بأنوثتها، بجمالها، بعفوية ونقاء، شعور مختلف عن عناق أي امرأة أخرى، الأم أو البنت، طبعًا هو مختلف كليًّا عن عناق الزوجة أو العشيقة.

شــعر أســود قصــير ناعم يحيط بوجهها المدور، فيزيدها بهاء وتألقا وحيوية، تسريحة غرسون التي لم تغيرها منذ طفولتها، ترحب، تتكلم، فيهفهف شــعرها مثل ســتارة يحركها نســيم ناعم، تنورة بيضــاء عريضــة ذات طيات كثيرة ناعمة مشــبعة بالأنوثة والحنان، بلوزة زرقاء قطنية مفتوحة عن العنق على شكل مثلث، نضارة وحيوية وشباب، الأربعون سن الاكتمال.

- كنت أتمنى حضــور الجنازة، لكن لم أجد رحلة على كل شركات الطيران، هذه كانت أقرب رحلة، قلبي معك، يرحمه الله.

مسحت بمنديل ورقي دمعة من زاوية عينها.

- وفاته كانت صدمة، غير متوقعة على الإطلاق، ما شكا من شــيء، يمارس كل صــباح الرياضــة، كنا نشــرب القهوة، في التاســعة صــباحًا، قبل خروجه، أحس بضــيق في الصــدر، كأنه غص بالقهوة، أمسك جبينه، كأنه أحس بدوار، ثم أشــار إليّ بيده، "أرجوك كأس عصـــير ليمون"، أســـرعت إلى المطبخ، رجعت بكأس العصــير، رأيته فاغر الفم، مائل الرأس إلى جانب، صــحت برهان.

تنفجر الدموع في عينيها.

- يرحمه الله.

- قبل سنة واحدة اشترى هذه الشقة، لم يهنأ بها، ست غرف، جعلها في السجل العقاري باسمي، حينها قلت له: " كان من الأفضل أن نشتري شقتين، واحدة فخمة، أصغر من هذه، نسكن فيها، والثانية متواضعة، في حي شعبي، نؤجرها وندعم بها دخلنا، ونخفف من العمل في المستشفيات"، قال لي: " دعينا نستمتع ما دمنا أحياء"، كان يحب الحياة، ولا يتوقع الموت، ولا يفكر فيه.

سامر ابني يسأل:

- عمتي، أين منى؟

أعلق:

- يسأل عن صديقته في الفيس والواتس.

- هي في معهد الموسيقى، سوف تأتي بعد نصف ساعة، وسوف تعزف لك المقطوعة التي تحبها، أعرف منها أنك تحب مقطوعات يان.

أعلق:

- سامر يتدرب أيضًا على البيانو.

- هل تحب أن تسمعنا معزوفة.

- بكل السرور، عمتي، إذا سمحت لي.

ويسرع إلى البيانو، ويأخذ بعزف مقطوعة.

أختي تتابع كلامها:

- فور انتهاء إجازة الوفاة، التحقت بالمستشفى، العمل عندنا كثير، مرهق، إجازة الوفاة أسبوع فقط، انتهت بسرعة، آه لو ترى، زميلاتي وزملائي الطبيبات والأطباء والممرضات، حُزْنُ الجميع كان أكبرَ مِن حزني، برهان، يرحمه الله، كريم، في كل مناسبة يدعو الجميع بنفسه إلى العشاء في الشيراتون، رحمه الله، صنعت له قبرًا فاخرًا يليق به، غدا يوم الجمعة، نذهب جميعا إلى زيارة قبره، في المقبرة الحديثة، اشتريت قبرًا جديدًا إلى جوار قبره، هو لي.

- مد الله في عمرك، ومتّعك بالصحة والعافية.

- لو جئت في ذلك اليوم، لرأيت أكاليل الزهور والباقات، من مدخل البناء إلى الشقة، الصالة هناك والغرفة هنا امتلأت كل واحدة منهما بالأكاليل والباقات، في اليوم الثالث حملتها كلها في شاحنة إلى المقبرة.

الغرفة متألقة بهاء ونورًا، تطل على الحديقة الخضراء بواجهة زجاجية بحجم الجدار كله، وفي الركن المقابل شاشة تلفزيونية كبيرة والمذيعة في ثوب أنيق تبث الأخبار وهي تبتسم والشعر مرسل في الجانبين فوق صدرها، لكن لا يمكن أن تتفوق على أختي في الجمال، والأناقة، على الرغم من ملامح الحزن الظاهرة، وفي الجهة المقابلة صورة كبيرة يطل من خلالها برهان بوجهه المتألق وسامةً، وهو يضحك، جبين عريض، وعينان

زرقاوان، كأنه حي ينطق، وهو ينظر إلينا مباشـــرة، يحدق فينا، في وسط الغرفة مزهرية أنيقة تحمل زهور التيوليب.

تنتبه أختي إلي، تعلق:

- زهور التيوليب لن تغادر هذا المكان، سـأحضـر كل يوم ثلاث زهرات جديدة، لي وله ولابنتنا منى، كان يرحمه الله، يرجع كل ليلة وهو يحمل ثلاث زهرات جديدة، تنبض بالحياة، ويضـعها هنا في المزهرية بنفسه.

وتدخل الخادمة، تحمل صـينية فيها الحلوى التي أشـتهيها، أنادي سامر، أناوله طبقًا، أضعه أمامه على منضدة صغيرة، وأنا أقول له:

- تناولْ من هذه المبرومة بالفســتق، هذه هي الأصـــلية، صناعة الوطن.

- أعرفها، تحضر لنا منها دائمًا في باريس.

زوجتي تعلق، وهي تتناول قطعة:

- لا، هذه تختلف، تذوقها، وستعرف الفرق.

ثم تدخل الخـادمـة وهي تحمل فنـاجين القهوة، أنظر في الفناجين، كل فنجان تطفو فوقه رغوة رائعة، وقد رُسِـــمَ فيها قلب صغير.

ألتفت إلى أختي أقول لها:

- حتى في الطـائرة قدموا لنـا قهوة، في كل فنجـان، على السطح منه، وفوق الرغوة قلب.

تعلق وهي تبتسم:

- الحب في هذه الأيام يطفو فوق فناجين القهوة في كل مكان.

ألتفت إلى زوجتي، وأقول لها:

- هل سمعت؟ الحب في هذه الأيام يطفو على سطح فناجين القهوة في كل مكان، لكن حبنا الذي ولد في مقبرة لا يزال يعيش، وأنت سميته لعب أطفال.

أسمع صوت سامر يعلق:

- بابا، رائحة القهوة هنا أيضًا مختلفة.

زوجتي تقول للخادمة:

- هاتي فنجانًا لسامر، نحن في صغرنا كان الأهل يمنعوننا من شرب القهوة، يقولون القهوة للكبار، ولا تنسي اصنعي فوقه قلبًا صغيرًا.

الخادمة تعلق:

- أمرك سيدتي.

أختي رهف تضيف:

- اصنعي فوق فنجانه قلبين، قلبه وقلب منى.

حقيقة رائحة القهوة مختلفة ومميزة، مذاقها مدهش.

سامر يشير إلى التلفزيون، ويعلق:

- بابا، انظر، مثلما قال عمي، الناس يذهبون إلى الموت، أرقام الموتى كبيرة.

وأنظر إلى التلفاز، المذيعة تتحدث عن إحصائية هذا العام لعدد الموتى في العالم، وتشير إلى أرقام كبيرة لموتى في الأوبئة وقتلى في الحروب.

أختي رهف توجه جهاز التحكم نحو الشاشة، وتضغط، فتظهر مطربة تؤدي أغنية صاخبة مع فريق من الراقصين والراقصات في قمصان مفتوحة عند الصدر وبنطلونات ممزقة في مواضع مختلفة وهم يؤدون حركات أقرب إلى العنف.

بعد ستة أشهر من عودتنا إلى باريس، ولم نقعد في الوطن سوى أسبوع واحد، كتبت إليَّ أختي على الواتس تخبرني أنها باعت الشقة، واشترت شقتين، إحداهما فيها أربع غرف، وهي فخمة، في الحي نفسه، سكنت فيها، والأخرى في حي متواضع، أجَّرَتْها بمبلغ شهري جيد، هو خمسة أضعاف دخلها، وأكدت أنها تستطيع به وحده أن تعيش مع ابنتها عيشة جيدة، وأرسلت في الواتس عدة صور للشقة، وأكدت لي أنها خففت من عملها في المستشفى.

والدي رحمه الله ذات صباح بعد زيارتنا لجدتي بأكثر من أربعة أشهر قال لي: "اليوم خرجت مع جدتك إلى المقبرة "، سألته: "ولماذا لم تأخذني معك؟" قال:" الجو حارٌّ جدًّا، ونحن في شهر تموز، وهذه أول مرة تخرج فيها جدتك من البيت، انقضت أشهر العِدّة"، وسألته: "وما العِدَّة؟"، قال: "على المرأة التي يتوفى عنها زوجها ألا تخرج من البيت إلا بعد أربعة أشهر وعشرة

أيام"، يا إلهي، كم كان أجدادنا مظلومين، فهموا العدة ألا تخرج المرأة من البيت أبدًا، مع أن العدة في الحقيقة ليست كذلك، ها هي ذي أختي تخرج للعمل وتبيع وتشتري، جدتي المسكينة كما حدثني أبي أســـدلت على وجهها حجابًا أســـود، ولم ترفعه إلا أمام قبر زوجها، جدي، رحمه الله، أكد لي والدي أنها بكت أمام القبر، بكت كثيرًا، في حرّ شـــهر تموز، في المقبرة المشـــتعلة بوهج الشمس، والصـهد يرتفع من الأرض، والعشـب مصـفر محترق، والشـــواهد الحجرية ســـاخنة كالنار، وهي في الثانية والثمانين، وحين رجعت إلى البيت، كانت قد ضـربتها الشـمس، ونالت منها الحمى، وبعد بضـعة أيام ماتت، قال لي والدي: أشـاد بها الجيران والأهل والأقارب، مجَّدوا وفاءها لزوجها، قالوا: "ماتت حزنًا على زوجها، كانت تحبه، لحقت به بعد خمسة أشهر"، وكانت في الحقيقة ســتموت حتى لو لم تخرج إلى الشــمس، أنا لا أريد الآن لأختي أن تموت حزنًا على زوجها، رحمه الله، أريدها أن تعيش.

عصام...وكتاب الروح

يمر تحت شرفتها تهمي عليه ياسمينات ناعمة كالبسمات، تمر تحت شرفته يغمرها الكناري الأصفر بألحانه الطويلة الممتدة كنسمات الصيف، شرفتها تناظر شرفته، توأمان متطابقان، شقته تقابل شقتها، كأنهما صفحتان متقابلتان في كتاب واحد، كثيرًا ما يخرجان معًا، فيلتقيان مصادفة. كأنهما على ميعاد، أحيانًا يدعوها إلى الصعود في سيارته، فتمضي معه، تستجيب إليه مثل الماء العذب، أحيانا تعتذر. أشكرك، أحب المشي. بكل بساطة تعامله، وبكل بساطة يعاملها. يسهر في شرفته، فيحس أنها في شرفتها تسهر مثله، يكاد يرى الياسمينات البيض متفتحة في ضوء القمر كالنجوم. وتسهر في شرفتها، وتحس أنه في شرفته سهران، والكناري يرسل إليها نداءاته. في كل مناسبة تقدم له طبقًا من الحلوى الفاخرة، المحشوة بالفستق. أنا لا أشتري ولا أتكلف، الحلوى دائما في شقتي، والدي صاحب محل لصنع الحلوى. هكذا بدأت حياتهما، ثم زادت بينهما الصلة، فبدأت تدعوه في كثير من الأيام إلى تناول طعام الإفطار في شقتها، وهو يدعوها مع ابنتها إلى عشاء في مطعم.

*

رغد أتمت دراستها الجامعية، بلغت الثانية والعشرين، جاء شاب تقدم إلى خطبتها، وسرعان ما تم الزواج، وسافرت معه.

وهما على مائدة الإفطار، كعادتهما، تسأله:

- طوال خمسة عشر عامًا، ونحن جاران، كنت دائمًا أحدثك وأستشيرك، واليوم، بعد زواج ابنتي، سوف أستشيرك.

- في موضوع الزواج؟

- نعم، أنت تعرف أني تزوجت وأنا في الخامسة عشرة، وتوفي زوجي وأنا في العشرين، كان عمر ابنتي خمس سنوات، وانتقلت فورًا إلى الشقة المقابلة لشقتك، اشتراها لي أبي، واليوم أبي يقول لي: ابنتك كبرت وتزوجت وسافرت، وبقيت أنت وحدك، وصار عمرك خمسة ثلاثين، فهمت منه أن شابًّا تقدم إليه يطلب الزواج مني، وطالما نصحتني أنت وقلت لي: عيشي مع ابنتك، وأخذت برأيك، كنت لي العقل المفكر، والآن، بعد زواج ابنتي، ما رأيك؟

- اسألي قلبك.

- قلبي ما يزال مع زوجي.

- لا تتزوجي.

- تريدني أن أعيش للروح.

- أنت في الحقيقة الروح.

- أنت وعدتني أن تكتب عن الروح.

- الليلة سأكتب الصفحة الأخيرة.
- هل أنت واثق من أنك ستكتب الليلة الصفحة الأخيرة.
- كثقتي بروحك، وثقتي بعقلي.
كادت تنطق بكلمة أخرى، لكنها سكتت.

*

كانت ليلة خريفية مختلفة، غطت فيها الغيوم الداكنة وجه القمر، سمع خربشات هادئة على الباب، كأنها خربشات قطة، وإذا سيدة في الباب، لم يتبيَّنْ ملا محها في العتمة.

- أنا أخت جارتك نور.
- هل قرعتِ عليها الباب؟ ولم تفتح.
- بل جئت إليك، أريد زيارتك أنت.
- والموضوع؟
- هل تتركني في الباب واقفة.
- ولكن.
- لا تفكر كثيرًا، دعني أدخل أولًا.

وتلقي وشاحا كان حول عنقها، وترفع عصابة كانت تشد بها شعرها، ينفلت شعرها الأسود الطويل على كتفيها. عينان واسعتان مكحولتان، شفتان ممتلئتان، صدر مكتنز، طول فارع، جسم رشيق.

- تفضلي هنا، إلى غرفة المكتب.
- وهل تريد استقبالي في مكتبك، مثل طلابك، بين الكتب.

- عفوًا، تفضلي هنا إلى غرفة الجلوس.
- قررت المبيت عندك هذه الليلة، هل عندك غرفة للنوم؟
- هي هناك في الداخل، واسعة، وفيها سرير عريض، ولكن منذ أن هربت زوجتي مع عشيقها، قبل ثلاثين عامًا، لم يدخلها أحد، مغلقة، وعليها من الخارج قفل.
- ولماذا هربت؟
- قالت: الفيلسوف والمرأة لا يجتمعان.
- وأين تأكل؟ وأين تنام؟
- هنا في غرفة المكتب، فيها منضدة صغيرة أتناول عليها طعامي، وسرير ضيق أنام فيه.
- لا بأس، مناسبة جدًا.
- ولكن، لم تحدثني عنك أختك من قبل، نحن هنا معًا منذ خمسة عشر عامًا، ولا أعرف أن لها أختًا.
- أنا شقيقتها، أختها التوأم، كنت محبوسة في غرفة في الداخل، ومغلق علي من الخارج بالقفل، تمامًا مثل تلك الغرفة التي أغلقتها أنت.
- لا أصدق.
- طبعًا، غرفتي المحبوسة فيها، وغرفتك المغلقة، أمور لا يمكن أن يصدقها العقل.

يتأملها، يتفرس في وجهها.

كأنها هي، بل لعلها هي، تقاطيع الوجه، الملامح، ولكن، ربما صبغت شعرها بالأسود، ونفخت الشفتين، واكتحلت ووضعت عدسات لاصقة، كأنها الوجه الآخر، لا أصدق، أين عقلي؟

- أختي تنكرني، وتتنكر لي، ولا تذكرني، ولا تتذكرني، كأنها نفتني من حياتها، لا أعرف كيف عشت أنت بجوارها خمسة عشر عامًا، ولم تعرفها على حقيقتها.

- عرفت حقيقتها.

- وما هي؟

- الروح.

- هذا هو الجانب الذي رأيته أنت فيها، وهو الجانب الذي عاملتها على أساس منه، ولذلك وعدتها بالكتابة عنها.

- ليس عنها، وإنما عن الروح.

- هي أوحت لك.

- ليس إيحاء، أنا فكرت بالكتابة عن الروح عندما هربت زوجتي وتركتني، ثم بدأت بالكتابة عندما سكنت أختك نور في الشقة مقابل شقتي.

- وكيف عرفت أختي؟

- بالعقل المحض، والتفكير، أختك مثَّلَتْ لي الروح.

- لعلك أنت الذي تصرفت معها على أنها محض روح.

- ربما.

- بسبب فارق العمر، هي في الخامسة والثلاثين، وأنت في السبعين.

- لا، هذا قرار مبني على العقل والتفكير.

- ربما، أنا أشك، وهل حقا ستكتب الليلة الصفحة الأخيرة من الكتاب؟

- كيف عرفت هذا؟ أنت هي.

- هي توأمي الحقيقي، وما يفكر فيه أحد التوأمين، يفكر فيه التوأم الآخر.

- هي أنت، وأنت هي.

- أنا هي أنا، كيف لم تميّز بيني وبينها، وأنت صاحب العقل الذي يستطيع أن يميّز بين الأمور.

- أحيانا يتعب العقل، فيعجز عن التمييز، طاقته محدودة.

- إذن، هل يمكن معرفة الروح بالعقل؟

- وهل تتوقعين معرفة الروح بالجسد؟

- ولمَ لا؟ الروح في الجسد، وهو الذي يتحرك بالروح.

- لا أعرف.

- لا تقل لا أعرف، قل لم أجرب.

- ربما.

- هل يمكن أن أقرأ معك الصفحة الأولى من كتابك عن الروح، لعلي أوحي لك ببعض الأفكار.

*

تزاحمت غيوم، تراكم بعضها فوق بعض، هبت ريح قوية، التمع برق، هدر رعد، تدفق مطر غزير، كـأنه كان محبوسًا منذ سنين، جرت سيول، دُمِّرَتْ قواعدُ بيوت وأساساتها، وخرَّت أسقف.

في عتمة آخر الليل، وقبل بزوغ خيوط الفجر الأولى، غادرت. سألها عن اسمها:

- كريمة.

- كريمة، نور، كاف نون، كن، فيكون، والدك أحسن اختيار الاسمين.

- كيف لا؟ وهو الذي يحسن صنع الحلوى، ويطعمها الناس كلهم.

*

في صباح اليوم التالي قرعت عليه نور الباب:

- تفضل، لنتناول طعام الإفطار.

صوتها متغير.

دخل وراءها على الفور، وهم بالمضي إلى الشرفة، استوقفته.

- للأسف، سنتناول الإفطار هنا، في المطبخ، العاصفة اقتلعت شجيرة الياسمين.

- وفي شرفتي أيضًا، سقط القفص، ومات الكناري.

قعدا متقابلين إلى مائدة صغيرة.

رأت عينيه المتورمتين، لم ينم الليلة الماضية، دخل وراءها فورًا، وهو في المنامة المفتوحة عن صدره العاري، ولحيته غير حليقة، ليس من عادته أن يزورها وهو بهذه الهيئة.

اقتطع قطعة كبيرة من الخبز، غمسها في الصحن، وحشرها في فمه، وسرعان ما فرغ صحنه، كان من قبل لا يتناول سوى بضع لقيمات، وبأناقة مفرطة، نظر إليها:

- لم تتناولي أنتِ أي لقمة؟

- اعذرني، لا أشتهي الطعام.

حدّق في صحنها.

- إذا كان عندكَ رغبة في الصحن الثاني، فتفضَّلْ تناول صحني.

قهقه بصوت عال، على غير عادته، وزمجر:

- عندي رغبة في تناولكِ، أنت، قبل صحنِكِ، وتناول المطبخ، والشقة كلها.

نهضت، رجعت إلى الوراء.

غمس الصحن الثاني بلقمتين، تراجعت إلى باب المطبخ.

- ماذا؟ أنتِ اليوم غير طبيعية.

- يؤسفني أن أخبرك أنني سأنتقل.

- لماذا؟

- شعرت بالوحدة بعد زواج ابنتي.

- إلى شقة أوسع؟

- إلى غرفة صغيرة جدًّا، مريحة، هادئة، بعيدة، بعيدة، جدًّا.

قهقه، وصاح:

- لا يوجد مثل تلك الغرفة إلا في المقبرة.

- عرفت، وصدقت.

- لماذا؟

- أدفن فيها هذا الجسد.

- لماذا؟

- لأن الروح غادرته.

يحدّق فيها، يقترب منها:

- أنت هي، هي أنت، كريمة، نور، صبغت شعرك، نفخت شفتيك، وضعت عدسات سوداء، كحلت عينيك.

- ربما، ولكن من غير المؤكد، هكذا يصور لك عقلك القاصر.

- بل هي أنت.

- أين قدرتك على التمييز، وأنت الفيلسوف القادر على التمييز بين الأمور.

- بالأمس قالت هي لي هذا الكلام.

- لا تنس أنها أختي وتوأمي، وما تقوله هي، قد أقوله أنا.

- لكن أنت الروح.

تضحك، تقهقه، أول مرة، تمشي أمامه، تتغنج:

- الروح غادرتني، مثلما غادرك العقل.
- أوه، أنت هي، الآن أرى بقايا الكحل الأسود العريض في عينيك.
- أنا دائما أكتحل.
- لم ألاحظ ذلك من قبل.
- لأنك كنت ترى روحي، فقط، ما كنت تراني.
- أكاد أجن.

*

يتركها ويمضي إلى شقته، تسرع إلى الحمام، لتزيل ما تبقى من كحل ليلة أمس.

تسمع صوت سقوط مروِّع، تركض إلى الشرفة، أحد سكان العمارة، يرفع رأسه إليها، ويقول:

- جارك الأستاذ عصام رمى نفسه من الشرفة، والنار تشتعل في غرفته المطلة على الشارع.

تسرع إلى شقته، كتاب الروح في السرير حيث تركاه ليلة أمس، النار تشتعل فيه، تحمله بين يديها، تحاول إنقاذه، تضمه إلى صدرها، تأكلهما معًا النار.

البكاء مرتين أمام قبر الجد

دخل في الزحام، بين الشـــباب، رفع جســـمه على رؤوس أصـــابع قدميه، مدّ عنقه، رأى الاســـم وإلى جانبه الرقم، انفجرت الدموع في عينيه، التفت راكضًـــا خارج المبنى، أشـــار إلى ســـيارة أجرة، كفكف دموعه، إلى أقرب محل لبيع الزهور، نفح الســـــائق مبلغًا أكثر مما ســـجله العدّاد، رأى الســـائق الدمع في عينيه، لم يســـــأله، على غير عادته، طلب من البائع أن يُعدَّ له باقة زهر فاخرة، سـأله البائع عن المناسـبة، لا تسـألني، أرجوك، دهش بائع الورد، تفضـــل، هذه باقة عرس، أعطاه أكثر مما طلب، حملها، وأشـــار إلى ســـيارة أجرة، إلى المقبرة، أهلًا، لكن الأجرة مختلفة، المقبرة خارج المدينة، نتفق على الأجرة، أو ضـــعف ما يســـجله العداد، خذ ما تشاء، هو في المقعد الخلفي، السائق حائر بين باقة الورد الفاخرة، وبين الدموع المنهمرة من عينيه، أسكت الأغنية التي كان المذياع يبثها، هل ماتت خطيبته، هل هي لقبر أمه؟ الدموع تنهمر، لكنـه لا يجهش في البكـاء، دموع مختلفـة، رأيـت كثيرين يبكون وأنا أسـرع بهم إلى المقبرة، سكت، لم يسـأل، قدَّر مشـاعره، السـيارة تحلق بجناحين، كأنها نسـر يحمله، يحس بالهواء منعشًـا، رمى للســـــائق المبلغ، ولم يطلـب البقيـة، واندفع داخـل المقبرة، والدموع تهطل من عينيه، حار بين القبور، تاه، رجع إلى حارس

المقبرة، هل تعرف أين قبر جدي، ضـــحك الحارس، أعرف مواقع القبور واحدًا واحدًا، وأعرف أصـــحابها، وتاريخ حياتهم، أنا هنا مختار الحي، ضـــحك، انهمرت الدموع من عينيه أكثر، أمام قبر جده، بكى أكثر، ولكن انفرجت أساريره، وكاد يضحك.

جدي، لماذا لم تنتظر فقط شـــهرين، جدي، نجحت، لا ينقصـــني من المجموع التام غير علامة واحدة، جدي لماذا لم تنتظر، لماذا استعجلت، سأدخل كلية الطب، سأكون الأول بين المقبولين، كنت ســـأعالجك، جدي حبيبي، ووضـــع شـــفته على الشاهدة الحجرية، أحس بها باردة، بكى أكثر، بللها بدموعه.

حارس المقبر يحمل إليه دلو ماء، يصـــبه فوق صـــفائح الحجر، يلتفت إليه، هات دلوين، هات ثلاثة، دموعي لا تكفي، يحضـــر الحارس آنية فخارية، طافحة بالماء، يضـــع فيها الزهر، ويضعها فوق القبر بين شاهدتين حجريتين باردتين.

وهو يخرج من المقبرة يضـــع في يد الحارس مبلغا، رحم الله جدك، كان كريما مثلك، أعرفه، ســـأروي تربته كل يوم بالماء، وسأعتني بباقة الزهر.

يمشـــي قليلا خارج المقبرة، يرن الهاتف الجوال، يرفعه إلى أذنه

– ابني تأخرت، ما هو مجموعك؟ أعرف، نجاحك مضمون، لكن المجموع.

– ينقصني علامة واحدة من المجموع العام.

– أين أنت؟ تأخرت.

يمضي إلى البيت، في سيارة أجرة، يتأمل المدينة، والبيوت، السيارة تمشي هادئة بطيئة، كئيبة.

آه يا جدي، لماذا أخذك الموت قبل أن ترى مجموع علاماتي، النجاح مضمون، يا صالح، أعرف، لكن أريد المجموع، أريدك تدرس الطب، حتى تعالجني، كل الأطباء لم يفهموا علتي.

يعانق أمه، يقبل يدها، والدموع في عينيه وفي عينيها.

– أوه، نسيت إحضار الحلوى.

– سامحك الله، الحلوى عليَّ أنا، أمك، تعال إلى المطبخ، أحضرت لك الحلوى، لكن ننتظر، سيصل إخوتك.

ويلتف الجميع حول المائدة.

– هل سمعتم، يزور قبر جده، ويحمل له الورود، قبل أن يأتي ليبشر أمه، ثم يأتي ولا يحمل لا الحلوى ولا الزهور.

– سامحيني يا أمي، غلبني الانفعال.

– الحلوى عليك يا أمي، والزهور عليّ أنا.

– شكرا أخي خالد.

– وأنا عليّ هدية غالية، خذ افتح هذه العلبة.

– أوه، شكرا أختي هدى، عرَفْتُ قبل فتْح العلبة، هاتف جوال حديث.

– هدية من زوجي حسان، أرسله من الإمارات مع صديق منذ ثلاثة أشهر.

– ليته معنا الآن.

– وليتك أعطيتني الهاتف فور وصوله.

– لو أخذته قبل ثلاثة أشـــهر ما كنت حصـــلت على هذا المجموع، كان سـيشـغلك عن الدراسـة، متطوِّر جدًّا، وفيه تقنيات حديثة.

– هل فيه سماعة طبيب وجهاز قياس ضغط وتخطيط قلب وتحليل دم.

– كل شـــيء ممكن يا أخي صـــالح، لا نعرف ماذا يخبئ المستقبل.

– لا تتفاءل، يا أخي، المستقبل هو الموت.

– موت جدك أثر فيك، سامحنا، الحقيقة، كنا نخشى...

– موته هو الحافز الدافع والباعث.

– قـال لي زوجي حســـان: أخوك وفيٌّ لجـده، وهو في الإمارات كان يســألني دائمًا، ولا يصـــدق أن مثل أخي صـــالح، الشـاب ابن العشـرين عامًا، يتخذ من الجد أخًا وصـديقًا، ولا يكون له صـــديق غير جده، ولا زيارات، ولا ينام إلا معه في غرفته، مع مرض الجد، ولا يخاف من العدوى.

– اســـمعي يا هدى، جدي لم يكن مريضًـــا، هو وهن الشـيخوخة، وأنا كنت أسـتمتع بشـخيره وهو نائم، أحس بأنفاسـه، كأنه هو الشهيق وأنا الزفير، أحس بتقلُّبه فوق السرير، أمسك يده، أتلمس العروق الزرقاء النافرة، أحس بنبضـــها، أقبِّل يده، ألثمها،

أستمتع بالشعرات البيض فوق يده، رائحة يده كالمسك، حتى عندما مات، فاحت رائحة المسك، وجهه مشرق كأنه ملك من السماء.

– أنا، منذ صغري، وسامحك الله يا أمي، كنت تخافين عليَّ من الموتى، وأدخلت في ذهني صـــورة لا أعرف كيف أقول عنها، مخيفة.

– أنت يا خالد، وأنت يا هدى، عاصرتما الجد وهو في سن الرجولة، ولم تعرفا حق المعرفة حنانه عليكم، وربما عرفتم عطف الأب، رحمه الله، أما صـــالح، فما عرف غير جده، هو الرجل الوحيد في حياته، استشهد أبوكم رحمه الله، وصالح ابن سنة، أو أقل، ما رأى الأب، وما عرف حنان الأب، وهو لا يعرف أين قبره، وكلنا لا نعرف، الحرب، لعن الله الحرب.

– أمي، أرجوك، انسي، لا تبكي، يرحم الله الجميع.

– يا بنتي، كيف أنســى؟ حتى أنت وأخوك، ما عرفتم حنان الأب حق المعرفة، كان عمرك خمس سنوات، وأخوك عمره ثماني ســنين، أبوكم يرحمه الله، رجل، مثل جدكم، وأكثر، أخوكم صــالح رباه جده، لذلك جدُّه هو كل شيء.

– وأنت يا أمي، أنت الأصـل، لا أنســى، كنت أفهم، وحتى أنا ابن خمس ســـنين، تأتي الجارة، وتقول لك: لا تفني شـــبابك، عندي ابن خالتي تاجر غني، كريم، ما عنده أولاد، زوجته عاقر، سيهتم بك، ويربي أولادك، أحسُّ بحبك لنا.

– وأنا ســـمعت مثل هذا الكلام قبلك يا صـــالح، حتى من القريبات، لا من الجارة وحدها.

– نعم، وأنا ســـمعته، للأســـف، حتى أنا، تقول لي جارة: زوجك في الإمارات منذ خمس ســـنين، يعلم الله ماذا يفعل، ربما تزوج، اطلبي الطلاق، وتزوجي، لا تدفني شـــبابك، ما هي حياتك من غير زوج.

– الآن اتركوا هذا الماضـي، لا أحب سـيرته، سـيرة طويلة، ولســنا وحدنا من عاش اليتم وفقد حنان الأب، تاريخنا كله حروب وشـــهداء وأيتام وأرامل، وليس وحدنا مَنْ هاجر الزوج للعمل ليوفر لأولاده المسـتقبل، مشـكلتنا كلها في المسـتقبل، صـدقوني، لا في الماضـي، دعونا نفكر في المستقبل، بماذا تفكر يا صالح بعد نيلك الشهادة الثانوية بهذا التفوق؟

– الطب، جدي قال لي: ادرس الطب، لعلك تعالجني.

– أوه، يا صـالح، رجعنا إلى الجد، ليس الجد من أوصـاك بالطب، المجتمع كله يتطلع إلى الطب، إلى العلم، لا تقل جدي جدي، أنا أحب جدي، هو جدي مثلما هو جدك، ولكن أنا

– يا خالد، قلت لك، هناك شـــيء من الحب والارتباط بين الجد وصالح، أنت لا تعرف، صالح عاش مع جده، أنت...

– يا صالح، افتح هديتي لك، دعونا من هذا الحديث، تعالوا نرى ماذا في هذا الهاتف الجديد من تقنيات حديثة.

*

ويســـرع أحمد إلى الجامعة، بعد أســـبوع أعلنت الوزارة عن شروط التسجيل.

يمشـــي في حرم الجامعة واثقًا مطمئنًّا، قبوله في كلية الطب مؤكد.

يقرأ قائمة الأوراق والثبوتيات المطلوبة، يباشر في تحضيرها.

أمـام الموظف في الســـجـل المـدني يبرز بطـاقـة الهويـة الشخصية، ويطلب بيانًا بالسجل المدني الخاص به.

في نظـارة الموظف ينعكس ضـــوء الحـاســـوب، ويرى الصــفحات وهي تمر، ومن عدســة نظارته يرى عينيه الضــيقتين تحـدقـان، يرى حـاجبيـه يرتفعـان، يراه يحـدق فيـه، يراه يحـدق في بطـاقـة الهويــة، يرفع النظـارة عن عينيــه، ينقـل نظره بين وجهــه وبطاقة الهوية وشـاشــة الحاسـوب، يضــع النظارة، يتأكد، حاجباه الكثان يرتفعان ثم يهبطان، يرفع النظارة، ثم يعيدها.

– يا بني، أنت صـالح بن محمود ابن صـالح بن محمود بن صالح.

– نعم، نعم، أنا صالح، ووالدي محمود، وجدي صالح.

– يا بني أنت مُتَوَفًّى منذ شهرين.

تنفجر عروقه، يحمر وجهه، يصيح

– هذا جدي

– لا أعرف، أنت متوفى.

– أرجوك، تأكد، من اسم الأم وتاريخ الولادة

– أمك عائشة

– نعم

– أنت من مواليد...

– نعم

– أنتَ مُتَوَفًّى

– والحل؟

– لا تقلق، هذا خطأ من الموظف المسؤول عن تثبيت الوفيات في السجل، كل شيء يمكن تصحيحه، أنا سوف أدلك، توكِّل محاميًا، لا بد من المحامي، وترفع دعوى على الموظف في قسم الوفيات، وتحضر بيان عائلة، وشهادة وفاة جديدة باسم جدك جديدة، وورقة من مختار الحي، يثبت فيها أنك حي، وأنه يعرفك، وتحتاج إلى أربعة شهود، وترفع الدعوى مع الثبوتيات إلى العاصمة، ويتم التدقيق، ثم ينظر فيها القاضي، وعلى الأغلب سوف يتم التصحيح، وتثبت وفاة جدك، ويثبت أنك حي على قيد الحياة، هذه حالة نادرة، واحدة بالمليون، مثل بعض الأمراض النادرة، حماك الله منها.

– وكم تستغرق هذه المعاملة؟

– سؤال لا ضرورة له، الجواب واضح، من ستة أشهر إلى سنة.

*

تقف سـيارة الأجرة أمام المقبرة، ينزل بهدوء، يمشـي متثاقل الخطا

– أهلا بالأستاذ صالح، يرحم الله جدك، كل يوم أصب على قبره دلو ماء، الزهور كما هي، لم تذبل.

– ليتك تصب دلو الماء فوقي، أنا الميت، لا هو.

يقف أمـام القبر، يروي الحجـارة البيض البـاردة بـدموعـه، ويبكـي، ويبكي.

القصاب وجاره.. وسيخ الكباب

أســـرعت الأم إلى الباب، وإذا فائق والدموع تنحدر من عينيه.

ضمته إلى صدرها، وهي تسأله:

– من ضربك أخبرني؟ هل وقعت؟

وأسرعت إليه الجدة، تدب على عكازتها:

– كيف جئت وحدك؟ كيف عرفت الطريق إلى البيت، ولم تضع؟

مسح دموعه، وضحك:

– وهل أنا صغير حتى أضيع، المحل في الشارع الخلفي، بعد المنعطف بأربع محلات.

– ولماذا تركت المحل وجئت؟

– أريد أن أسأل: ما معنى قليل الشرف؟

وتسأل الأم:

– من قال لك هذا؟

– هكذا سمعت القصاب يقول لجاره.

– حدثنا ماذا جرى؟

*

في الصباح، أخذ عقيل ابنه فائق من يده، وقال:

– في عطلة الصيف لا مدرسة ولا دراسة، سأضعه عند صاحبي القصاب أبو جاسم، في الشارع خلفنا، رجل شهم، محله شبه مطعم صغير، يرتاده كثير من الناس، أريد أن تعركه الحياة ويتعلم.

علقت الجدة:

– لا أريد أن يسمع الكلام البذيء من الناس، أنا ربيتك أحسن تربية، ما تركتك تسمع من الشارع الكلمات القذرة.

ويرد الأب:

– يا أمي، أرجوك، المجتمع ظالم، والناس ليسوا أمه ولا جدته، الناس وحوش، وعليه أن يتعلم كيف يقلع شوكه بيديه.

وتتكلم الأم:

– ولكنه في العاشرة من عمره.

ويضيف الأب:

– أنا نالني ظلم كثير، لأني ما اختلطت في المجتمع من صغري، من البيت إلى المدرسة، ومن المدرسة إلى البيت، حتى الآن، وأنا رجل في الخمسين، يخدعني سائق التكسي، ويغشني بائع السمك، أنت يا أمي...

تقاطعه:

– يا ابني، ليس ذنبي، أنا ربيتك أحسن تربية، المجتمع تغيّر، كثر الفساد.

ويرد:

– لذلك أريده من الصـــغر أن يخالط الناس، ويرى كل شيء، ويسمع.

وتتكلم زوجته:

– لكن ما وجدت غير القصـــاب، ليعمل عنده مثل أجير؟ ليتك تضعه عند خياط أو نجار، ليتعلم حرفة.

ويرد بهدوء:

– لن يعمل مثل أجير، وأنا أضعه عند القصاب لا ليتعلم مهنة، أنا أضـــعه عنده فقط ليخرج من البيت، في هذه العطلة، ويخالط الناس، ويتعلم.

– ولماذا لا نسجله في معهد ليأخذ دورة في تعليم الرسم أو الموسيقا.

ويتكلم بحدّة:

– المعهد مثل المدرسـة، عالم مثالي، يخرج منه ليصـطدم بالمجتمع.

*

أمام المحل يتدلى جسد خروف ذبيح، كتلة كبيرة من اللحم، عنق مقطوع، رأس معلق، اللســـان يتدلى من زاوية الفم، أزرق اللون، والأسنان تعض عليه بقسوة، اقشعر بدنه، طرفت عيناه.

صك سمعه صوت، نظر، وإذا بين يدي القصاب سكين حادة جدًّا وهو يسنها على مسن مخروطي الشكل، أحس بشفرة السكين الحادة، تخيلها وهي تحز عنق الخروف.

عينا القصـاب واسـعتان، واسـعتان جدًّا، كأنما يصـيح به، وجهه مدوَّر، ممتلئ، اللغد تحت ذقنه ممتلئ يترجرج، شـــارباه أسودان غليظان، الشعر في حاجبيه طويل كثيف متنافر، فيه شبه بمدير المدرسة، ولكن هذا أكثر منه غلظة وخشونة.

قال له أبوه مشجِّعًا:

– سلِّمْ على عمك أبو جاسم.

مدَّ إليه يده الصـغيرة، فضـاعت في يد القصـاب، وقد شـدّ عليها بقوة، وهزّها بعنف، وهو يقول له:

– شدّ على يدي بقوة.

ثم التفت إلى والده، وقال له:

– أهلا بأفضـــل جار، ابنك فائق بعيوني، تكرم، ســأرعاه، وأهتم به، لن أرســله إلى مكان بعيد، اطمئن، عندي حســون أكلفه بالمهمات الصعبة.

وأشار إلى غلام بجواره، نحيل، طويل، أصفر الوجه، يشبه طالبًا مشاغبا في مدرسته، في الصف السادس.

وقال الأب مشجِّعًا:

– سلِّمْ على حسون.

ومد يده إليه ليصافحه، فأخلى حسون يده، فذهبت يد فائق في الهواء، جلجلت ضحكة القصاب، التفت إلى حسون، وقال له:

– اصــبِرْ على الولد، لا تســتعجل، هذا مثل البنت، تربية بيت، خذه بحلمك، هيَّا، صافحه.

ومده إليه حسون، فتصافحا، وتشجع فائق، فسأله بعفوية:

– فسأله في أي صف أنت؟

وجلجلت أيضًا ضحكة القصاب، وعلّق:

– هو في صـــف الخراف الصـــغيرة، ولم يصـــل بعد إلى صف التيوس الكبيرة، مثل عمك أبو جاسم، حسون ترك المدرسة من زمان.

وتركه الأب ومضى.

*

وجلجل صوت أبو جاسم:

– يا فائق، في عمق المحل أربع طاولات، هي نظيفة، لكن امسـحها، عندك هنا خرقة ناشـفة، بللها بالماء وامسـح الطاولات، انتبه، لا تكسر الكاسات.

كأنه في أول يوم من أيام المدرســـة، أحس بالوحدة، مرة قالت له المعلمة:

– انهض يا فائق، هنا على المنضـــدة ممســـحة خاصـــة، خذها، وامسح بها اللوح.

أحس بصـــغر جسـمه، وقصـــر قامته، مد يده النحيلة إلى أعلى، وبدأ يمسـح اللوح، ضـحك زكلاؤه في الصـف، هنا يمد يده فوق سـطح المنضـدة ويمسـح بقع الدهن، ورماد سـجائر، الخرقة سرعان ما أصبحت متسخة.

وهدر صوت أبو جاسم:

– يا حسون، خذ الخرقة، واغسلها، ليكمل فائق مسح الطاولات.

*

أبو جاسم يرمي في فوهة فرامة اللحم الكهربائية قطع اللحم، فوهتها عريضة، يزقّ اللحم في فوهتها بأصابعه، يذعر، لا شك في أن الفرامة سوف تأكل أصابعه.

أبو جاسم ينادي:

– يا حسون، اذهب إلى السوق، وأحضر الفحم، لا تتأخر، خذ معك فائق، اقطع الشارع عند الإشارة، أمسك يده.

في طريق العودة، يقول لفائق:

– خذ احمل عني الكيس.

ثم يخرج من جيبه علبة سجائر، يستل منها سيجارة، يشعلها، ينفث الدهان، يقول لفائق:

– خُذْ، جرِّبْ.

– لا أدخن.

– لستَ رجلًا، يجب أن تتعلم، خذ جرب.

قبل الوصول إلى المحل يقول له:

– احذرك، لا تخبر المعلم بأني دخنت.

*

أبو جاسم يلقي بقطع الفحم الأسود في موقد الشواء، ويتطاير الشرر، وتزكم أنفه رائحة الفحم، تدمع عيناه، ثم يعبق

المحل برائحة الشـــواء، يحس أن ثيابه كلها قد امتصـــت الرائحة، حتى قميصه الداخلي، يجب أن يستحم فور عودته إلى البيت.

أبو جاسـم يتناول سـيخا من الكباب المشـوي*، يناوله إلى فائق، وهو يقول:

– خذ، تذوَّق.

ثم بأناقة لا فتة للنظر يراه وهو يودع في ســـفط من الورق المقوى أسـياخ الكباب، فوق رغيف، ويصـــف إلى جانبه برشـــاقة قطعًا من البصـل المشوي والبندورة، ويغطيه برغيف آخر، ثم يلف السفط في ورق أبيض، وينادي:

– حسون، يا حسون.

ويتكلم فائق:

– أنت أرسلته لشراء دواء من الصيدلية، ليأخذه إلى البيت.

يغمغم:

– هذا لن يرجع حتى العصر، أعرفه.

يناوله السفط، وهو يقول له:

– خذ هذا السفط، واصعد إلى الدور الخامس في المصعد، اقرع الباب على مسعود، وناوله السفط، مدخل العمارة هنا، بجوار المحل تمامًا.

ويهم بالخروج، فيقول له:

* سيخ الكباب: الكباب هو اللحم المفروم ناعمًا، يلف حول سيخ معدني، ويشوى على الفحم، وليس المقصود بسيخ الكباب السيخ المعدني، إنما المقصود الكباب نفسه.

– إذا دعاك مسعود للدخول إلى الشقة فلا تدخل.

*

يقرع الباب، يخرج إليه رجل في السبعين، نحيل، شعر رأسه أبيض، لم تسقط منه شعرة، على عينيه نظارة، أنفه مدبب مثل منقار الديك، يشبه أستاذ الرياضيات، لكنه أكبر منه، يرتدي قميصًا داخليًّا، يكشف عن شعر صدره الأبيض الكثيف، تنفحه رائحة من داخل الشقة غريبة، تشبه عرق الجسم، يسمع صوت موسيقى راقصة، لكنها ليست عالية.

يتناول السفط، يفض الورق، يعد أسياخ الكباب.

– هذه تسعة أسياخ، يا لعين، أكلت واحدًا في المصعد.

يذعر، يرجع إلى الوراء.

– افتح فمك.

يهجم عليه بوجهه، يمسكه بذراعيه من كتفيه بقبضتين من حديد، يرتعش، يشم فمه.

– رائحة فمك شواء، تناولت واحدًا.

ويمسك أذنه، يعركها، تنفجر الدموع في عينيه، هي نفس العركة التي تلقاها مرة من معلم الرياضيات، لأنه نسي دفتره في البيت.

– لا تحلف، اذهب، سأكلِّم معلمك، أنا أعرف كيف سأتصرف معه.

*

لا ينتظر المصـــعد، ينزل على الدرج ركضًـــا، وهو يبكي يشهق، يتحسس أذنه، يحس بها ساخنة كالنار، ينظر في أصابع يده، يتوقع أن تكون تلوثت بالدم من عركة الأذن.

المصعد يهبط، يرى العجوز يهبط فيه، يسبقه إلى المحل.

يقف خارج المحل خائفا، يسمع صوت العجوز والقصاب وهما يتصارخان بصوت مرتفع.

– كيلو الكباب دائما عشرة أسياخ.

– ليس بالضـــرورة، قد يكون عشـــرة، وقد يكون تســـعة، بحسب طوال اللحم الملفوف على السيخ.

– لا تدافع عن الولد، أنا شممت فمه، رائحته كباب مشوي.

– لا تتهم الولد، أنا قدمت له سيخًا ليذوق الشواء.

– هذا اعتراف منك، أطعمته من أسياخي.

– أنا أطعمته من أسياخ أجهزها للمحل.

ويرمي السفط بما فيه في وجه القصاب.

– كذاب، أنت لص، وغشـــاش، تخلط اللحم بلحم القطط، أين القطط التي كانت تملأ محلك، سأشكوك إلى الشرطة والبلدية والتموين، أنت قليل الوجدان، قليل الذمة والأمانة.

– وأنت قليل الشـــرف، رائحة الخمر نشـــمها من شـــقتك، وبنت طالعة من شقتك، وبنت داخلة، سوف أخرجك من العمارة، لن تظل فيها ساعة، إما أنت وإما أنا.

– سوف ترى، من سيخرج من الحي كله، أنت تطعن في شرفي.

*

بعد أقل من ربع ساعة، تقف سيارة الشرطة أمام المخفر، يقاد القصاب إلى السيارة مقيّدًا.

يصل حسون، يقول له القصاب:

– انتظرني في المحل، سأرجع، لن أتأخر.

ثم يلتفت إلى فائق، يقول له:

– لا تخف، هل تعرف طريق العودة إلى البيت؟

يهز فائق رأسه، ويسرع إلى البيت.

*

فائق يمسح دموعه، ويسأل جدته:

– ما معنى: رجل قليل الشرف.

– معناه يسرق، يكذب، يغش، لا يفي بوعده.

– ولماذا كل يوم تدخل بنت إلى بيته، وتخرج بنت، ولماذا يريد القصاب طرده من العمارة كلها؟

الجدة تتحيَّر في أمرها، تتلجلج، تقول له:

– لا أعرف، اســـأل والدك عندما يرجع في المســـاء، هو سيشرح لك، هو الذي أرادك تدخل في المجتمع وتعرف الحياة.

صمت، ثم سأل:

– وهل أنا قليل الشرف، مثل ذلك الرجل؟

تضحك، تتألم، تضمه إلى صدرها:

– لا، حبيبي، أنت طالب مدرسة مهذب.

يخبئ رأســـه في صـــدرها، يحيطها بذراعيه، ثم ينتفض، يسأل:

– هل ستأخذني الشرطة مثل القصاب.

– لا، حبيبي، أنت لم تفعل أي شيء.

– والقصـاب لم يفعل أي شـيء، لماذا أخذوه؟ هل بسـبب نقص سيخ واحد من الكباب؟

– بحسـب كلامك ليس بسـبب سـيخ الكباب، لكن بسـبب تهديده للرجل.

وتدخل الأم، تسمعه يسأل الجدة:

– وإذا فرضـــنا أنـه أنقص من الكباب ســـيخًا، فماذا سيحصل؟ هل تأخذه الشرطة؟

– حبيبي فائق، لماذا هذه الأسئلة، يجب أن تنسى.

– أريد أن أعرف، أبي قال يجب أن أتعلم.

تجيب الجدة:

– إما أن تأخذه الشرطة، أو يحاسبه الرب.

*

يستيقظ في الليل مذعورًا، يتلمس يديه، يحس بالقيد يضغط على معصميه، يسمع زعيق سيارة شرطة قادمًا من بعيد، يسدل

الســـتارة، يختبئ في زاوية الغرفة، الصـــوت يقترب، ثم يبدأ في الابتعاد.

– يا رب، ســامحني، أنا فتحت الســفط، وتناولت ســيخًا واحدًا، سامحني يا رب.

يوم عمل بهيج

أســـتيقظ وأنا في حالة من البهجة والســـرور، على غير عادتي في صباح كل يوم، أحس بانشراح وكأنني وسع هذا الكون.

أنطلق بسيارتي نحو مكتبي.

يوم شـــتوي قارس البرد، ولكن الجو صـــحو، والشـــمس مشرقة، كأنني أكتب موضوع تعبير عن رحلة مدرسية، وأنا طالب في الصف الأول الإعدادي، ما أحلى الطفولة، قطعة سكر صغيرة تبهجنا، هي كل شيء، وأنا اليوم أعيش كل شيء.

الأرصفة شرايين تضج بالدماء الحارة، ما أجمل الحياة.

زحام الســـيارات ممتع، أمامي رتل طويل من الســـيارات تنتظر إشـــارة المرور، حمراء، صـــفراء، خضـــراء، تتكرر مرَّات ومرَّات، وأنا ما أزال بعيدًا عنها، وليكن، نمشى الهوينى، مُمتِع هذا البطء، أستند بمرفق يدي اليسرى إلى نافذة السيارة، أتلقى نسمات باردة منعشـــة، أمدُّ يدي اليمنى إلى المســـجِّل في الســـيارة، ولكن سرعان ما ترتدّ يدي، لا أريد أغنية من المسجل، كل أغنيات العالم تنداح في داخلي، يتردّد صـــداها في العالم كله، كأني بحجم هذا العالم، كأنني ممتلئ به، أو كأنه ممتلئ بي.

في باب المديرية أحيي الحارس، أصـــافحه، على غير عادتي، تتَّسع بسمته، تملأ وجهه كلَّه، أبتسم له أكثر.

السكرتيرة تنهض تحييني.

صباح الخير حبيبتي، أقولها، لكنها لا تسمعها، صوت في داخلي يقولها مدوّيًا مالئًا العالم كله.

هل كانت هي؟ لم تكن هي، بل كأنها كانت هي.

وأدخل غرفة مكتبي.

- بديعة، ارجوك، أزيحي الستائر كلَّها، دعي أشعة الشمس تملأ الكون، لا أريد بعد الآن لا الستائر ولا المصابيح.

وأسرع بنفسي إلى إزاحة الستائر، أساعدها، تكاد أصابعي تلمس أصـــابعها، تغمرني رائحة الأنوثة، تطغى على عطرها الناعم، أحس بنداء جسمها المتعرِّق تحت معطفها الناري الأحمر، القميص الأسود تحت المعطف يزيد نار المعطف اشتعالًا.

- أستاذ، كيف نسيت اليوم ارتداء معطفك؟
- الجو صحو، والشمس مشرقة.
- ولكن لسعة البرد قاسية.

وتصمت ثم تضيف:

- وربطة عنقك غير مشدودة، كالعادة؟

أضـــحك، هكذا تركت الربطة واســـعة، رخية، مثل الحياة الواسعة، الجميلة، مثل هذا الصباح الجميل.

- شكرا لاهتمامك.

لم تكن تهتم بي من قبل، كنت أحس أنها تكرهني، كنت قاســيًا معها، أعاتبها أشــد العتاب على أي خلل ولو بســيط في

ترتيب الأوراق داخل ملفات المراجعين، كنت أصـــيح بها: أنت المسؤولة.

الآن، لا أســتطيع الغوص في عينيها الســوداوين، كأنها كانت هي، بل لعلها كانت هي.

تمضـــي إلى مكتبها والشـــعر الأســـود ينثال على ظهرها يتمايل يتطاير يهفهف، موســـيقى صـــباح جميل. أناديها، تلتفت، تقف في باب المكتب، والمعطف الناري مفتوح عن كامل جسـمها، ونهداها يتدفقان بركانين.

- لا تغلقي باب المكتب، ولا تتعبي نفســـك بحمل ملفات المراجعين، ليدخل كل المراجعين فورًا إلى مكتبي.
- أمرك أستاذ، هل تريد مني أي شيء آخر؟

كأني لم أســمع منها مثل هذا الســؤال من قبل، أحس كل شيء في الكون قد تغير.

- سوف أناديك.

ثمة شـــيء اليوم مختلف، شـفتاها تتقلصـــان، ترتعشـــان، مرتبكة؟ مترددة؟ هل أحســـت برغبتي في عناقها وتقبيلها؟ مع أني حاولت جهدي أن أكون عاديًا جدًا، أنا متأكد من أني كنت أضـبط نفسي، وأسيطر عليها، هل شاركتني الحلم؟

يدخل أحد المراجعين يناولني الملف، أقول له:

- تفضل.

يسألني:

- هل أنتظر في الخارج؟
- لا يا أخي، قلت لك تفضل، وأشرت لك بيدي إلى المقعد، أنت لم تلحظ إشارتي، تفضل، اقعد، سأوقع لك على الملف، لكن بعد التدقيق.

وأناوله الملف:

يتناوله، ينحني أمامي مرات ومرات، وهو يردِّد:

- أشكرك أستاذ، سامحني، توقعت أن تقول راجعني بعد أسبوع.
- لا، يا أخي.
- هكذا قالوا لي عنك.

أضحك، العالم يتسع، أسمع قهقهة تملأ الآفاق، نعم هكذا كنتُ، لكن اليوم تغيَّر كل شيء.

وينتشر في الكون شذى قهوة مميزة.

- سلمت يداك، يا بديعة.

تكاد تكون هي نفسها حقيقة، ما أروعها، هي أجمل من الحقيقة ومن الواقع، ليتني لا أرتشف القهوة، ليتني فقط أتنسم عبقها المميز، لتبقى إلى الأبد.

كرشه المنفوخ يكاد يمزق قميصه، قصير، بدين، مدور، مثل كرة، عيناه المتورمتان تخرجان من محجريهما، يضع على المكتب ملفًّا كأن في داخله كلَّ أوراق الدنيا.

- تفضـــل أســـتاذ، الملف كامل، فيه كل الأوراق المطلوبة، غمِّض عينيك ووقع، في داخل الملف أوراق إضـــــافية احتفظ بها عندك.
- اذهب فورًا، وأرسل صاحب المعاملة، ولا ترجع معه.
- أستاذ؟
- كما قلت لك.
- ولكن؟
- تغيَّرتُ، تغيّرنا، تغيّر العالم كله، لا مســـيِّرَ معاملات بعد اليوم، ولا أوراق إضافية.
- أستاذ، أمس كنتَ...
- واليوم صرتُ.
- في ليلة واحدة تغير كل شيء؟
- نعم في ليلة واحدة تغير كل شيء.
- هل ربحت مئة مليون؟
- ربحت ما هو أكثر، أحضـر صـاحب المعاملة، ولا ترجع معه.

يوليني ظهره ويمضي، بلا رجعة، إلى جهنم.

كتفاه ضـيقتان، وعجيزته واسـعة كبيرة، منتفخة، هل يضـع في مؤخرته حفاضات؟

ربحت العالم كله، ربحت ذاتي، لم يكن مجرَّد حلم، بل كان أجمل من الحقيقة، ومن الواقع، هو الواقع الحقيقي.

عصـــا تدق على الأرض، ورجل عجوز يتكئ عليها، وفي رجله عرج.

- يا عم، أنت صاحب هذه المعاملة؟
- نعم.
- لا تتعامل بعد اليوم مع مســـيِّر المعاملات، ادخل إلى مكتبي فورًا.
- سيدي، هذه هي العادة.
- خذه هذه الأرواق الإضـافية، لسـت بحاجة إليها، أحفادك أحوج إليها مني، هي أضـــعاف راتبك التقاعدي، لماذا تضـــعها في الملف، ومعاملتك نظامية؟ وهذه معاملتك جاهزة، تفضل.

بديعة تسرع إليه، تمنحه ذراعها، يتكئ عليها، تساعده على الخروج إلى نهاية الممر.

عودي إلي، تعالي إليَّ أنا، لأتكئ على ســـاعدك، ونهدم معًا هذا العالم.

بديعة ترجع، ملامحها متغيرة، نظرتها منكسرة، تمشي وهي تنظر في الأرض، لم أتنبَّه إلى هذا من قبل، كأنها تريد أن تبكي، هل آلمها قولي: اتركي كل المراجعين يدخلون إلى مكتبي، هل فهمتْ أني ألغي دورها؟

- بديعة، بدءًا من اليوم سيتغير كل شيء، كما قلتُ لك، لا مسيِّرَ للمعاملات.

- نعم، صدقتَ، من اليوم سيتغير كل شيء.

تغصّ بصوتها، ترتعش شفتها، تمتلئ عيناها بالدموع.

تهم بالرجوع، أناديها، تلتفت، الدموع تنهمر من عينيها.

أنا ممتلئ اليوم بالعالم، أنا مبتهج، وهي تبكي، أول مرة أراها تبكي، طفلة، هل جرحتها كلماتي، كان العالم كله لا يتسع لحجم متعتي وسروري، وهي الآن تبكي.

- بديعة، ماذا عندك؟

تنظر في الأرض، تميل برأسها، تمسح دموعها براحة يدها، أنهض، أتجه إليها، أقف قبالتها، أكاد أضمها إلى صدري.

- خذي إجازة، بل اذهبي إلى البيت، من غير إجازة، إذا كنت متعبة، لا ترهقي نفسك.

دموعها قطرات عطر، أود لو ألثمها، أتناول منديلًا من سطح المكتب، أهم بمسح دموعها، بأناملها تتناول المنديل، معصمها دقيق نحيل ناعم شفيف، أشفق عليه، أود لو ألمسه.

- الدنيا لا تسعني، أستاذ، أكاد أختنق، الجدران تنطبق علي، الدنيا سوداء.

وأنا الدنيا لا تتسع لسروري وبهجتي، ما أجمل هذا اليوم، ما أتعس هذا اليوم، أحبك، يا بديعة، صوت يصرخ في أعماقي، ليتك تسمعينه.

تبكي، تشهق، كأنها سمعت أصداء صوتي يملأ العالم.

- بديعة، أرجوك تكلَّمي.

- في نهاية الدوام سيكون على مكتبك قرار من المدير العام.
- وماذا فيه؟ قرار نقلي؟ التحقيق معي؟ كلنا هنا نتلقى الرشاوى، لكن، بدءًا من اليوم، لا رشاوى.

وأصمت، وأصرخ ملء الصمت: من أجلك، من أجلك يا بديعة، أصرخ، ولكنها لا تسمعني.

- لا تحقيق، ولا رشاوي، هو عدوك صلاح.
- صلاح صديقي.
- هو عدوك، وعدوي، طالما حذرتك منه، وقلت لك.
- ماذا فعل؟
- اقترح على المدير العام نقلي من مكتبك للعمل في مكتبه.

الليلة، كنتِ أنتِ، أنتِ حقيقة، كنتِ أنتِ التي قبلتها في الحلم، ما يزال طعم القبلة في فمي.

العالم ما عاد يتسع لي، ماذا أفعل؟

هل أتصل بصاحب الكرش المنتفخ والعينين المتورمتين، وأقول له أحضر لي أنت المعاملات؟

الأضواء كلها تغيب

في هدوء المقبرة لمحها بين المشيعين، أدهشه حضورها، المقبرة تحولت إلى مهرجان، الشمس تطل من بين سحابات خريفية، وقطرات من رذاذ المطر الناعم تلمس وجهه، وعيناها تهمسان له، مثل عطرها الناعم الذي يسكن حواسّه كلَّها.

دنا منها، نامت أصابعها الناعمة في يده، أصابع باردة، راعشة قليلًا. هكذا أناملها دائمًا. لم يشأ ترك أناملها، لولا جمْعُ المشيعين من حولهما. متألقة مثل الخريف المتألق بثوب الحداد الأسود.

– المتوفَّى عمي، شقيق والدي، يرحم الله الاثنين.

– لم تحدثيني عنه من قبل؟

– لم نجد مناسبة للحديث عنه.

– كم عمره؟

– ٨٤، عزب، لم يتزوج، ولم ينجب، ليس له أحد غيري، كلُّ هؤلاء المشيعين أصدقاؤه.

– قبر والدي هنا، كنت في زيارة له، في مثل هذا اليوم، من كل سنة، أزوره، هي ذكرى وفاته.

– هذا وفاء منك للوالد.

– هذا واجب.

– وإذا مت أنا، فهل ستزور قبري؟

– أتمنى أن نموت معًا.

تبتسم، تعلق:

– وهل هذا وفاء، أم واجب؟

بدأ جمْعُ المشيعين بالتفرق، ابتعدا عن الناس.

– مرت ثلاثة أشهر.

– أحس كأنها سنة.

– لا تبالغ.

– صدقيني.

خارج المقبرة، وجدت نفسها إلى جواره في السيارة.

– إلى أين؟

– سنتناول فنجان قهوة في مقصف الشرفة، مكاننا فيه لم يتغير.

– من غير اللائق شرب القهوة في المقصف، وأنا في ثوب الحداد.

– بهذا الثوب تنشرين الفرح في العالم كله.

– من الحزن إلى الفرح؟

– هكذا هي الحياة.

– اركن السيارة إلى جانب الرصيف، ونظل قاعدين فيها معًا.

– سنذهب إلى المكتب، مكانك فيه أيضًا لم يتغير.

– في الأشهر الثلاث الماضية، كم واحدة استقبلت فيه؟

– أبدًا، أنت وحدك، لا قبلك أحد، ولا بعدك.

– من غير اللائق أيضًـا أن نكون معًا، وأنا في هذه الحالة من الحزن.

– بل من الضروري؟

– لماذا؟

– لأذهب عنك حزنك.

– حزني سيتجدد.

عيناك هما عيناك، وخصـرك النحيل هو خصـرك، نهداك المتوثبان هما نهداك، لم يتغير شـيء، بل ازددتِ بهاء، وكذلك حبُّنا، هل أسـميه حبًّا؟ لا أعرف ما هو، كلَّما رأيتها تفجرت أشـواقي، فجأة في حضـرة الموت ثارت رغباتي، الفضـل للمقبرة، الفضـل للموت، الموت وهبنا الحياة، لا أعرف كيف مرت فعلًا ثلاثة أشـهر، لم نلتق فيها، لا أعرف السـبب، اتسـعت الأرض، تباعدت المسافات، ضاعت بنا الطرقات، تعطلت خطوط الهاتف، تداخلت الأرقام، هبطت علينا الأيام والأعمال مثل سقف إسمنتي مسلح.

وهذه اللوحة التي تحمل اسمك على باب المكتب الهندسي، آه، كم أود لو وضعت اسمي بجوار اسمك، بل قبل اسمك، فوق اسـمك، المهندسـة رغد، المهندس رغدان، لماذا لا تقبل أن تغير اسمك فتجعله رغدان، مثل اسمي رغد؟ المهندسان رغد ورغدان، لماذا لا نتزوج؟ لماذا لا نعمل على الأقل في مكتب واحد؟

أحب زوجتي، أعشـــقها، تمنحني الدفء والحنان والأمان، وهي أم أولادي، أعرف أني أخونها، ورغد، لا أعرف ما الذي يدفعني إليها، هي إغناء لحياتي، هي إضـــافة جميلة، هنا، معها، في مكتبي، أحس بـالانطلاق، والحريـة، من غير التزام، ولا ضوابط، ولا قوانين، ولا مجتمع، عش، مثل عش العصافير.

أحبه، لا أعرف ما الذي يجذبني إليه، شهم، نبيل، كريم، لا يتصل بي، ولا يسأل، يحب المصادفات، ولا يحب المواعيد، ما إن يلتقيني حتى تتفجر مشـــاعره، هل هي مشـــاعر أم رغبات؟ لا أعرف، المهم أنه يمنحني كل شيء، مكتبه يأسرني، ثلاث غرف، غرفة مكتب، وغرفة ســكرتيرة، وغرفة نوم، ومطبخ، وحمام، أحس فيها أنها شـقتي، أحس فيها أنني زوجته ولو لسـاعة، أسـتمتع إذ أخطفه من زوجته، لا غيرةً منها، ولا حســـدًا، لا أعرفها، رأيت صـــورتها مرة مصـــادفة في هاتفه الجوال، ولا أفكر في التعرف عليها، أستمتع إذ أحس أنني آخذ جزءًا من حياته، هو لي، لا فرق عندي، كله أو بعضه، أنا في تاريخه، وفي حياته، هو لي، جنون، نعم، جنون.

مرةً فكرت في الزواج منها، لكنني أقلعت عن الفكرة نهائيًّا، من أجل زوجتي، كثير من الصـــبايا حولي، لكنها وحدها التي أنشأت معها هذه الصداقة، هل هي صداقة؟ لا أعرف، لكن، رغد هي رغد، وزوجتي هي زوجتي، ما من مرة رأيت إحداهما في

الأخرى، لكن أنا، أحس بي أنا الزوج، وأنا الخائن، وأنا من يصادق رغد، وأنا... لا أعرف كم واحدًا في داخلي؟

كم أنا متناقضة! أحس أنني زوجته، ولكن لا أريد أن أكون، وإن كنت أحيانا أتمنى، مكتبي الهندسي غرفة واحدة، ومعي مهندسان شابَّان متدرِّبان، كل منهما في الخامسة والعشرين، أصغر مني بعشر سنين، كل منهما يطمع في أن أكون زوجته، ولا أفكر في مصادقة أيٍّ منهما، ولا في مصادقة غيرهما، أنا كنت من قبل لزوجي فقط، يرحمه الله، وأنا الآن لرغدان، فقط، وهو ليس بديلًا منه، زوجي له مكانة خاصة، ورغدان له مكانة أيضًا خاصة، أبي توفي في الستين من العمر، هشام في عمر أبي، كم أحب أن أسميه رغدان، لكنه لا يشبه أبي في شيء، وليس بديلًا منه، لولا أولادي، كنت تزوجته، لا، عليَّ أن أربي أولادي الثلاثة، خمس سنوات مرت على وفاة زوجي، ولم يبلغ الأربعين، لو كنت سأتزوج كنت تزوجت، سأربيهم، زواجي يعني لهم يُتْمًا جديدًا، وفاة الأب يُتْمٌ، وزواج الأم يُتْمٌ جديد، يا إلهي، كم أنا متناقضة، ما هذا الجنون، أنا أحبه، أنا واثقة من أني الوحيدة في حياته، ما إن أراه، حتى أستسلم له.

أحيانا يراودني الندم، لا أعرف إلى أين سوف تسير بي هذه الصداقة معها، هي تقول لي: "أنا لك إلى الأبد"، وأنا لا أريد أن أتركها، أحس أيضًا أني أخونها، لا أعرف كيف ستكون النهاية؟

هل سيجتاحنا الندم؟ أو يفرقنا الخصام؟ كل ما أرجوه ألا تحقد هي علي.

– هذه هي غرفتنا في الداخل.

– والسكرتيرة؟

– صرفتها.

يفتح الثلاجة، يعدَّان معًا عشاءً خفيفًا، يفتح زجاجة شمبانيا، يرشفان معًا من كأس واحدة.

– وزوجتك؟

– كل ليلة أنا لها.

– والليلة؟

– لك.

يطفئان معًا بقية سيجارة واحدة.

يحس بقربها منه وهي في المطبخ الصغير، تملأ حواسه كلها، لها عبق يميزها، يستمتع عندما يلمس طرف ثوبها، أو عندما تقترب هي منه.

تشعر بوجوده كله معها، وجوده يؤنسها، لحضوره خصوصية، لا تعرف سرها.

تخلع الأسود، يتألق الأبيض، يذهب الحزن، يموت الموت، تولد الحياة.

تُعدُّ القهوة، وتعود إلى الأسود.

– لماذا عدت إلى الأسود؟

– عاودني الحزن.

يضمُّها إليه، يأخذها في حضنه.

– كم الأسود شهيّ، سأزيل عنك الحزن.

برق ورعد وسيول تزلزل الجدران، أمطار تشرينية غير متوقعة، ترتج الأرض، وتكاد الأسقف تنهار. دقاتُ الساعة معلنةً عن منتصف الليل توقظهما من غفوة لذيذة.

في الباب، وهو يهم بالخروج معها، قالت له:

– لا تتعب نفسك، سآخذ سيارة أجرة.

– هذا مستحيل، لا بد أن أوصلك.

– إلى أين؟

– طبعًا، إلى البيت.

تتردَّد في أعماقه صدى ضحكتها:

– بل إلى المقبرة، منها جئنا وإليها سنعود.

– لماذا العجلة، سنرجع إليها يومًا.

– لكي نموت معًا، كما تمنيت أنت؟ هل نسيت؟ أو تراجعت؟

ضحكت، لفت يدها حول خصره، ونزلا معًا، وفي السيارة دخلت إلى جواره، وانطلق بها.

الشوارع خالية، الأرض المغسولة تلتمع ببقايا المطر، حركة المرور قليلة، أضواء السيارات مهرجان فرح، يتجاوز إشارات المرور، غير مبال لا بالأصفر ولا بالأحمر.

– أرجوك، مؤشر السرعة تجاوز المئة.

لا أنكر، في أول تعرفي عليه، كنت أفكر في الزواج منه، وهذا من حقي، مثلي مثل أي امرأة، كان ذلك قبل ثلاث سنوات، بعد وفاة زوجي بسنتين، في انتخابات نقابة المهندسين، كان الأكثر تألقًا بين كل المرشحين، ولكن لم يفز، دنوت منه، قلت له، ونظراتنا تتعانق، "صدقًا، أنا منحتك صوتي"، أجابني على الفور: "صوتك وصلني، هو في القلب، إن كنت لم أنجح به في الانتخابات، فسوف أنجح به في الحياة"، أسكرني جوابه، فكيف لا أحبه، ولا أتمناه زوجًا، ولكن بعد ذلك تغير تفكيري، رضيت بهذه اللقاءات الحميمة.

مرة واحدة سألتها: "كيف ستكون نهاية صداقتنا؟"، ردت بذكاء: "أنا لا أفكر في النهاية، أنا أعتقد أنها بلا نهاية"، صمتت، ثم أضافت: "البداية كانت من عندي أنا، هل تريد أن تكون النهاية من عندك؟"، لم أجد جوابًا، شعرت بالحرج، كم هو مؤلم التفكير في النهاية، نحاول دائما الهرب منها، ولكن كأننا نعيش من أجل النهاية، حقيقة، لا بد من التفكير في النهاية، وحقيقة، أيضًا، أحس بشيء من الخجل، من أجل زوجتي.

آه، ما أجمل الحياة، وما أشقاها، بل ما أقبحها، خروجي معه خطأ، خطأ، كل ما نفعله خطأ.

يحس بأنفاسها وهي ترسل الآه، يدوس على المكابح، صوت العجلات وهي تسحج الإسفلت يجرح صمت الليل، يكاد وجهها يصطدم بالزجاج الأمامي، سيارة وراءه تتجاوزه وهي ترسل زعيقًا.

– نادمة؟

– وأنتَ؟

– أنا أسألك؟

– سؤالك يدل على إحساسك.

ينطلق بجنون، يداه على المقود تتشـنَّجان، تنحفر الأخاديد في جبهته، لم يتوقع الجواب، بل توقَّعه، هي صادقة، يكاد لا يرى ما أمامه.

ثمة تقاطع تعبره شاحنة طويلة، تدور تحتها عجلات كثيرة، كأنها تسير ببطء، أو لعلها متوقفة.

كم الأسود شهيٌّ.

الأضواء كلها تغيب.

العجوز والقطة والكناري

لونه كالشمس يدفئني، يرسل تغريده طويلًا، يتدفق كشلال، أظنه لا ينتهي، هو يناديني، يتوجَّه عبر القضـــبان نحوي، والوفرة من الريش الأصــفر الناعم تقبُّ في عنقه، ما أنعم ريشــه، أود لو ألعقه بلســاني، آه، بيني وبينه قضــبان، مالي أســترخي أمامه، أطمئن، أمدُّ قوائمي فوق حافة الشرفة، وهو يتأمل ذيلي، كأنه يريد أن يقفز فوق ظهري، أحس بأظفاره الناعمة تدغدغني، بمنقاره الناعم ينقر في رأســـي، ينقر أذني، يغرد فيها، يهمس لي، يحس بنشـــوتي، يحط أمامي، ويرفع وجهه نحوي، ويغرد ويغرد، في داخلي تتحرك أشواق كل جدَّاتي، أحس بالجوع، مخالبي الغائصة في داخل أقدامي تبدأ تلقائيًّا بالتحرُّك نحو الخارج، أضغط بصدري على الأرض، كأني أختبئ وراء العشب، أستجمع كل قوتي، أثبت عيني على القفص المتدلّي من السقف بسلسلة، أقدِّر المسافة بيني وبينه، أريد أن أنقض، وهو يرســـل لحنًا طويلًا يمتد ويمتد، ثم يتقطَّع في شقشقات متوترة، ثم تهدأ فتتموج لتنساب رخية في انثيال ناعم، تقرقر بطني، أهجم، أقفز، أضرب بمخلبي، ويتطاير الريش، وألعق الدم، وأكســر العظام، آه، لكن القضــبان تحول بيني وبينه، وهو لا يدري ما بنفســي، أو لعله يدري، يســرُّه أن تنغرس المخالب في لحمه، ســامحني، هي أفكار جدّاتي ورثتها، وراودتني، وها أنت ذا تغرد وتغرد لي، تقفز نحوي متعلقًا بالقضــبان، عيناك ســوداوان جميلتان، يؤلمني أنك لا تســتطيع أن تطير إليَّ، وأني لا أســتطيع

أن أقفز إليك، يد العجوز الراعشة تستند على عصاه، وهو قادمٌ نحوي، حاملًا صحنًا صغيرًا، يده ترتعش، والحليب يتخضخض في الصحن، أرقبه، النعاس يغلبني، أحس بأجفاني تنغلق، ما أجمل الكسل، ما أجمل الدفء والتغريد، لا أريد الطعام، يكفيني التغريد المتسلل عبر مسامي كلها.

*

هي ذي قطتي، شقراء هي بلوني الذهبي، كأنها التفاحة، هناك في حديقة جدي العجوز في أعلى الغصن تفاحة مثل قطتي، كم أود لو أنقر التفاحة وأمتص شذاها وعسلها، أو أغمس منقاري في رأس قطتي وأداعب شعرها، ثم أغط في ظهرها، أدخل في شعرها الأشقر فأغيب، وأعبث بأظفاري في فقرات ظهرها، ثم أقفز أمامها أرى إلى جيدها الناعم، أحس فيه بالدفء، أدغدغها بمنقاري، فتقرقر، وأغرد وأغرد، وأرى ذيلها، كم هو جميل، وهو يلتف، وتطرف بعينيها، تغمضهما ثم تفتحهما، كأنها تود لو تراني في الحلم وفي اليقظة، كم نومها هادئ وجميل، مسترخية في دفء شمس الخريف فوق الحافة، وأنا منتصب فوق عود، متوتر، دائمًا، متحفز، متشنج مشدود الأعصاب والأوتار، لا أهدأ، ولا أستقر، أنقر القضبان، وأتعلق بها، من جهة إلى جهة، وأعود إلى جهتها، عيناها زرقاوان جميلتان، ووجهها مدوَّر ناعم، ولسانها أحمر، كم هو جميل حين تلعق به جانب فمها، أحيانًا تثيرني مخالبها، أرى جدي يمد لها يده، فتلمسه بيدها، وهي تخمش ظاهر يده، تدغدغه، فيضحك، ويمسح شعرها، يدغدغها تحت عنقها فتقرقر، ليتها تخمش جناحي، وليتني أداعب عنقها بمنقاري، فتقرقر، أتطلع

إليها، أشتهيها، ولا أطالها، هي مثل تلك الشمس الخريفية، تدفئني، وأتطلع إليها، أرف بجناحيَّ الضعيفين نحوها، أتعلق بقضبان القفص، أمد رأسي من خلالها، ولا أستطيع، أريد الطيران إلى التفاحة إلى الشمس، احمليني على ظهرك، يا قطتي، وتعالي لنطير معًا، آه، جاء جدي العجوز، بجُنْحِ تفاحة، يضعها بين قضبان القفص، لا، لا، أنا أريد تلك التفاحة على الشجرة، أخرجني أرجوك، أريد مداعبة قطتك.

*

لم يبقَ لي سوى عصاي، وهذا الكرسي الهزاز، أسترخي فيه هنا، أمامي قطتي والكناري، الشمس الكئيبة تغمرنا معًا، تدفئ عظامي النخرة، أشعر بها تدغدغ وجهي، أحس بخدر لذيذ، وأنا أغمض عينيَّ، لا أستطيع فتحهما، أرفع رأسي إلى أعلى، أفتح عينيَّ قليلًا، هناك في الشرفة البعيدة العالية صبيّة تروح وتجيء وهي ترفع إلى أذنها هاتفها الجوال، وتتكلم، لست متأكدًا، هل هي صبية؟ ليست عجوزًا مثلي بالتأكيد، بصري الكليل لا يساعدني، ونحن صغار كنَّا نتبارَى في النظر إلى الشمس، أيُّنا يستطيع التحديق فيها فترة أطول، هل أستطيع الآن النظر إليها، ليتها تحملني إليها هناك، لأشعر بالدفء أكثر، أغمض عيني، القطة بين نوم ويقظة، تفتح عينيها وتغلقهما، والكناري يرسل إليَّ لحنه المتوتر في هوس وجنون.

*

ما يزال في عصاي بقية من قوة، أظنها ما تزال تستطيع تحمُّلَ اتكائي عليها، وإن كنت أخشى أحيانًا أن تنكسر.

سبع شمعات...وشمعة واحدة

كلُّهم جـاؤوا؛ البنـات والأزواج والأحفـاد، وأزواج بعض الحفيدات الصبايا، كلهم جاؤوا، إلا هو، أوصل زوجتَه والأولاد إلى الباب، ولم يدخل، "قبل أن تطفئوا الشـموع بربع سـاعة أخبروني، سوف أحضر"، هكذا قال لزوجته، وزوجته نقلت إلينا كلامه معتذرةً بالنيابة عنه.

أعرف، لن يحضـــر، زوجته تقول: "هو مدعوٌّ إلى حفل يقيمه شريكه في العمل"، هكذا قال لها، وهكذا قالت لنا هي أيضًا، كذب، أنا أعرف، خلَا له الجو، سوف يحضر عشيقته إلى البيت، إلى بيت الزوجية، خائن، يخون زوجته، ويخون والده، لا يحضـــر حفل عيد ميلاد والده، ولا يتكفّل بمصروف الحفلة: غداء، حلويات، قالب كاتو، سبع شمعات، العمر كله يُخْتَصَر في سبع شمعات، الماضـــي كلَّه تختصـــرونه في هذه اللحظة، في هذه الشـــمعات السبع، والمستقبل كله يختبئ في صـناديق الهدايا المتراكمة هناك بـالـداخـل، هي للأيـام المقبلـة، للعـام المقبـل، هـل حقًّـا ســـوف أســـتهلكها؟ حذاء، أو قميص، أو ربطة عنق، أو ســـاعة يد، أو زجاجة عطر، والأولاد يضـجون، ينتظرون إطفاء الشموع من أجل قطعة كاتو، لماذا هذه الورطة كلها؟ ماذا قدمت في العشـرين سـنة الماضية، كنت أتوقع الموت في الخمسين، آكل وأشرب وأنام، كتلة

لحم تتآكل، تضـــمر، وكتلة اللحم التي ولدت قبل عشـــرين ســـنة نمت، كبرت، أصبحت صبية، آخر بناتي، تخرجت العام الماضي، ورطة ثانية: شقة فخمة، وسبع غرف، وعشرون شخصًا، بل اثنان وعشـرون، وأنا الثالث والعشـرون، أفنيت العمر من أجل هذا كله، وولدك الوحيد يخونك، ولا يحضر حفل الميلاد، شقة صغيرة جديدة في غرفتين، تكفيني، هي أكثر دفئًا وحنانًا وهدوءًا، كدحت وتعبت وضـــحيت من أجل هذه الشـــقة، ومن أجل هؤلاء القوم، والآن أنا وحدي، يرحمك الله يا أم بشـير، تعبتِ في تربيته، واخترت له اسم بشـــير، ولم يكن البشـــير، وهذه الهدايا تنتظرك، كنتِ تفتحينها لي بنفسك، أربع سنوات مرت، لم أصدق، وهكذا تذهبين قبلي، وأبقى أنا إلى الســـبعين، يرحمك الله، وبشـــير يرفض أن يقيم معي في الشـــقة، والبنات مع أزواجهن، وأنا هنا وحدي، يجب أن أســـعد بالسـبعين، الأحفاد يتراكضـون في البهو الكبير، يتنادون، يفتحون أفواههم يصرخون، شفاه الكبار تنفرج لترسل الكلام، وأنا لا أسمع، جهاز السمع يحتاج إلى بطارية جديدة، وما معنى سبع شمعات؟ وما معنى عشـرين حفيدًا؟ وأنا لا أسـمع هذا الضـجيج، الفرحة هم يعيشـــونها، وأنا هنا وحدي، حولهم الأولاد، وأنا في الدار وحدي، والمائدة حافلة بأصـــناف وأصـــناف، تكفَّل بها ماهر زوج ابنتي، وابني بشير غائب، يخون زوجته.

يحس باهتزاز الجوال في جيبه، يفتحه، ويرفعه إلى أذنه، يفتح مكبر الصوت، يركز كل حواسه وقواه ومشاعره في الصوت

الناعم القادم من بعيد، والذي لا يكاد يسمعه إلا بصعوبة، يرفع صوته بالصراخ، عيناه شاخصتان إلى الثريا المتألقة في فضاء البهو الواسع العريض والقوم تحتها لا وجود لهم بالنسبة إليه، كيانه كله، ماضيه ومستقبله منصب في هذه اللحظة الحاضرة: "أهلا حبيبتي، ما بدؤوا الحفل، سوف أتأخر، أعرف، عيد ميلادي الحقيقي عندك، هنا تقليد قديم، عليَّ إطفاء سبع شمعات، عندك سأطفئ شمعة واحدة"، ويغلق الهاتف الجوّال يضعه في جيبه، يخفض البصر فيرى أيدي البنات على الأفواه يرسلن الزغاريد، والأزواج يصفقون، والأحفاد يتراكضون حوله، وهو لا يسمع غير أصداء الفرح كأنه في عرس.

الشجرة الكبيرة اليابسة

وأخيرا وجدتني في دار جدتي، بل وجدتني أمامها وجها لوجه، لا أعرف كيف اهتديت إلى دارها، لكن أحس أني حتى وصلت إليها قد زحفت على الركب، ووصلت إليها وأنا شيخ عجوز، عبرت حارات وأزقة ضيقة طينية متعرِّجة، ترجع ربما إلى ألف وخمسمئة عام، أبي يؤكد أن جدتي، وهي العاشرة في نسب الأسرة الشريفة، قد عاشت مئة وخمسين سنة، وأن كل الجدات اللواتي قبلها، كانت الواحدة منهن تعيش على الأقل قرنًا كاملا، هي متكئة في سريرها في عمق الإيوان، الدار خربة، أعرفها بهية متألقة، أين عريشة الياسمين؟ أين دوالي العنب؟ كل شيء متخشب، حتى الكناري في قفصه المعلق في سقف الإيوان يبدو كأنه محنط، والساعة في تابوتها الخشبي الطويل أرى عقاربها تدور بالاتجاه المعاكس، فوق جدتي شجرة كبيرة يابسة، تمدُّ أغصانها العارية، جذعها غائص في حوض ماء، وثمة خدم كثيرون يصبون الماء في الحوض، لا أتبين ملامحهم، وتحت أغصان الشجرة سرير جدتي، قوائمه الحديدية غائصة في الحوض نفسه، والخدم ما يفتؤون يصبون الماء، كأنهم يريدون لقوائم السرير الحديدية أن تورق وتزهر، في عمق الإيوان خزائن معدنية تملأ الجدار كله، بعضها فوق بعض، من حجوم مختلفة، أرى بين يدي جدتي حصالتي الفخارية، وهي تحضنها، حصالتي يوم كنت

طفلا، لماذا سـلبَتْني حصـالتي؟ كم كنت أحب جدتي، كم أكرهها الآن، كأنها الذئب الذي أكل جدة ليلى وقعد في فراشـها، كلما التفتَتْ ظهر لها وجه جديد، غير الوجه الذي كنت أعرفه، حشـد من الأطفال والشباب والشيوخ والعجائز من نساء ورجال، يملؤون فناء الدار، أعرف وجوههم، كأنهم جميعًا الجيران والصـحب والأهل، أريد حصالتي، أمد إليها يدي، لا أصل، كتلة بشرية تمتد بيني وبينها، أطير فوقهم، أصـل إلى حوض الماء، السـرير في منتصفه، كأنه القلعة يحيط بها خندق مملوء ماء، خدم حول سرير جدتي، ثمانية بل عشرة بل عشرون، بعضهم في ثياب الأطباء، بعضـهم الآخر في ثياب المحامين، أصـيح: "أريد حصـالتي"، أصـوات مختلفة لشـيوخ وعجائز وشـباب وأطفال يرددون كلماتي بأصـوات كثيرة مختلفة، رجل من الخدم في هيئة محامٍ يشـير أنِ اصْـمتوا، ثم يتكلم: "سـنقرأ وصـيتها"، يمد يده إلى الشـجرة العالية اليابسة، يقتطف وريقة من أغصانها العارية، يضـع نظارة سميكة، يقرأ:" كل ما في الخزانة الأولى والثانية والثالثة والرابعة لترميم المخطوطات كلها وإعادة طباعتها وإيداعها في أقبية المكتبات"، ثم يقتطع من الأغصـان العارية في الشـجرة اليابسـة وريقة أخرى، يضـعها تحت عينه، يخرج من جيب سترته مكبرة صـغيرة خاصـة مما كان يستعمله مصلحو الساعات الدقيقة، يضـعها على عينه مكبرة خاصة، يحدق في الورقة، يقرأ: " كل ما في الخزانة الخامسة والتاسعة والحادية عشرة لبناء المساجد والكنائس والأديرة والمعابد"،

قلْبٌ قريب مني يخفق، أســـمع القلب يردّد:" جدتي، بيتي متهدم، أريد ترميمه"، لســـان آخر يتلجلج: "ليس معي ثمن الدواء لابنتي"، المحامي نفسه يقطف ورقة ثالثة من الأغصان العارية في الشجرة اليابسة، ويقرأ:" ما تحويه الخزائن من العشرين إلى الستين لبناء فنادق فخمة للسائحين والسائحات وملاعب للرياضة مسقوفة"، المحامي نفسه يقطف ورقة رابعة من الأغصان العارية في الشجرة اليابسة، ويقرأ: " القرى الثلاث وما بينها من مساحات تقدر بثلاثة آلاف هكتار تحول إلى محمية لتربية الخنازير البرية"، المحامي نفسه يقطف ورقة خامسة، يقرأ: " ترصد باقي الصناديق لإنشاء عشر قنوات فضائية جديدة ولتوظيف جميع الصبايا والشباب مذيعين وممثلين ومطربين ومعدّي برامج في القنوات"، المحامي نفسه يستل ورقة سادسة فسابعة فثامنة يقرأ، ويقرأ، ويقرأ، لا نسمع شيئا، أحد ما يشدني من قميصي، من وراء، يريدني الخروج، ألتفت، وإذا هي زوجتي تشدني، أشير إلى العجوز، وأقول لها: "نحن هنا جميعا، ننتظر"، تشدني أكثر، تريدني الخروج، أقول لها: "لن أغادر قبل الوصول إلى حصالتي على الأقل"، تقول لي:" أنت منذ مئة عام تنتظر، انظر إلى جدتك، هي جثة محنطة"، تشدني أكثر، قدماي سائختان في فناء الدار المتهدمة، تقول لي:" اسمع، مولودنا الذي وضعته الأسبوع الماضي زحف على قدميه ورجليه، وارتحل"، أهم بسؤالها إلى أين، ولكن أتذكر أنني كنت أحلم من قبل مثله بالرحيل، ولكنني تأخرت كثيرا، كنت أتمسك بحصالتي

الفخارية الصـغيرة، زوجتي تغيب، قدماي تغوصـان في فناء الدار أكثر، أحس أني أغوص أكثر فأكثر فأكثر، أتطلع إلى الفضـــاء أرى أطفالا كثيرين، أرى الحفاضـــات في مؤخراتهم، يزحفون على ركبهم يتجهون إلى أين لا أعرف، لكنهم على الأغلب لا يزحفون كما زحفت أنا من قبل نحو الشجرة الكبيرة اليابسة.

محل لتصليح الساعات

مدهوشا، أجد نفسي في المحل، لم أكن أتوقع، أعرفه منذ طفولتي، صاحبه صديق جدي، لطالما دخلت إليه، ورأيت المعلم سامي وقد أدخل المكبرة الصغيرة في محجر عينه اليمنى، وهو مكب بوجهه كله على ساعة صغيرة، وبيده ملقط وهو يصلحها. مرة، قدم لزبون ساعة، بعد أن صلحها، سأله الزبون: هل أنت واثق من أنها لن تعود إلى التسبيق أو التأخير؟ رفع رأسه، وقال له: أعدها إلي، وسوف أصلحها لك مجانا، إذا سبقت أو أخرت بعد خمس سنين. أبي اشترى لي ساعة من هذا المحل، قال لي: كي لا تتأخر عن المدرسة، وأنا في الصف الخامس الابتدائي، كانت بعقارب تدور، هكذا نسمي ذراعيها، رافقتني حتى دخلت الجامعة، عندئذ اشتريت ساعة رقمية. المحل فارغ، إلا من جامات بلور ثلاثة، كانت مكتظة بساعات قديمة للتصليح، وأخرى جديدة للبيع، زينيت، وجوفيال، ولوكس، وغيرها من الأنواع العالمية، حتى الساعات الرقمية ذات البطارية كان يصلحها، قال لي مرة: لو كنت أنا في سويسرا لصنعت ساعة لا تتعطل أبدا، ولا تحتاج إلى تصليح، ولا بطارية، الجدران تعلوها الرطوبة، الجامات فارغة، إلا من الغبار والعناكب، لا أعرف كيف دخل، هو نفسه صديق جدي، يرحم الله الاثنين، قال لي: تركت المحل لحفيدي، كان يدرس الحقوق، ليحوله إلى مكتب للمحاماه، كي يدافع عن حقوق الناس، لكنه لم

يعمل في المحامي، حوَّل المحل لبيع الدهان، واليوم أتركه لك، وخرج، من أين جاء، لا أعرف، كيف خرج لا أعرف، ماذا سأفعل بالمحل، هل أنقل إليه مكتبتي، وأعرض كتبي للبيع، في الخارج جلبة، ألتفت، وأنا في الباب أرى قطعانا بالآلاف من الخراف تملأ الشارع حتى الرصيفين، هي سيل جارف، ثم ها هي ذي تخترق المحل وتدخل، ولا أعرف كيف تخرج، من الطرف الآخر، ثور ينخرط بينها، أحد قرنيه مكسور، بالقرن الثاني يدفعها، كأنه يقودها، أو يوجهها لتدخل إلى المحل، قطعان من الحمير، من أين جاءت هذا الآلاف من الحمير، تدخل أيضا إلى المحل، ولا أعرف كيف تخرج أو تغيب، كأنها حيوانات منوية تتسابق للدخول إلى بويضة، وأنا أعوم فوقها، ثم أجد نفسي في الفراش، والنوم يداعبني.

سقف البيت

– يا أبو العز، السقف سيقع فوقنا، ما سمعت صوت الرعد والمطر؟

– نامي، ولا تخافي.

التماعات البرق تقدح فتضـــيء عبر النوافذ جدران الغرفة وخزائنها الخشـبية وجذوع الشـجر في السـقف، والعظام الناتئة في كتفه الأيسـر، لا يكسـوها غير جلد أسـمر شـاحب، وتدخل في صدره، تتشمَّم العرق، وتحكّ وجهها بشعر صدره الأبيض، وتحس بضلوع الصدر الأجوف، وتستمتع بالشعر الخشن في لحيته، وهو يحتك بشـعر رأسـها الذي لفته بالحناء طوال نهار الخميس، ولم تغسله حتى المساء.

آذار شـهر الزلازل والأمطار، إن أمطرت فعليكم بشـهر آذار، وإن أمحلت فعليكم بشـهر آذار، هكذا كانت جدتي تقول، آذار هو الأحب إلى قلبي.

وينهمر المطر، ويلتمع شرر البرق، يضـيء زجاج النوافذ، والمطر يسح عليه، كأنه زجاج فوق زجاج، الله يبعث الخير.

كم أنا صـغيرة ناعمة، وأنا أدخل في صـدره، مثل قطة، ليتني أغرز أظافري المهترئة في جلد ظهره المتجعِّد، لكنني أشـفق عليه، أحس بضلوعه، وأحس خفق قلبه، بِمْ، بِمْ، بِمْ، واحدة واحدة، ثم اثنتان، قلبه يدق بسـرعة، لقد أتعبتُه الليلة، ثم نام مِن غير أن

ينبس بكلمة، نام على جنب واحد، يجب أن أرفع رأســـي عن يده اليمنى، أحس أنني أثقلتُ على يده، لكن أخشى أن يستيقظ، ويسراه فوق عنقي، لكن، يجب أن يستيقظ، السقف سيقع فوقنا.

– يا أبو العز.

وينقلب إلى الطرف الآخر.

ويقصف الرعد، يدمدم، قادما من بعيد، من بعيد.

طوال أشهر الشتاء لم يهطل المطر، ثلاثة أشهر لم يهطل فيها، ومع آذار بدأ الخير، أنتَ جلبتَ معك الخير، ألف دولار، عمل شــهر في بيروت، هو عمل ســنة هنا، تلقيها بين يديَّ، فور وصـــولك، وتقول لي: لكل ولد ولكل بنت مئة دولار، ويبقى لنا مئتان، تســتريح عشــرة أيام، ثم تســافر، الله يديم نعمه علينا، لكن بيروت، وأنا أعرف بيروت، أخذتَني إليها مرة واحدة، وما عدتَ تـأخـذني، "خـذني معـك، اتركني في الفنـدق، واذهـب أنـت إلى الشـــغل"، هكذا أقول له، وهو لا يقبل، والله قلبي معك، وروحي، ولكن عقلي، أحيانا أقول: "عنده عشــيقة في بيروت، الشــغل هو الشـغل، ولكن، يمكن أن يكون عنده عشـيقة، الرجل رجل ولو بلغ المئة، هو ما يزال في الســـبعين"، تمنيت هذه الليلة أن يطول بنا السهر، لكنه بعد كأس الشاي والسيكارة، دخل في النوم، أخبرني، قال: "صــليت العصــر، وفورا، غادرت بيروت"، عصــر الخميس غادرها، توقعتُ وصولَه بعد العشاء، هيأتُ له كلَّ شيء.

نقطة نقطتان على وجهي، ليس هو العرق، بل هو السقف تتسرب منه قطرات المطر، ولا أسمع صوت المزراب، طوال أربعين عامًا، منذ زواجنا، في هذه الدار، وأنا أسمع صوت سقوط المطر من المزراب ومن أعلى السطح إلى فناء الدار، ينهمر شلالًا صاخبًا، وحين يصطدم ببلاط أرض الدار أسمع له طرطشة وصخبًا، حتى سقوطه من فتحة المزراب وهو يتدفق أحس له هديرًا واندفاعًا، لكن، المطر الآن يتجمع على السطح، ولا يجري في فتحة المزراب، هي مسدودة من غير شك بأعواد وأوساخ وطين.

– انهض يا أبو العز، السقف سيقع فوقنا.

أرقُبُ السقف، ثمانٍ وعشرون، بل ثلاثون، بل تسعة وعشرون، أعيد العد، هي ثلاثون جذع شجرة، كم مرة عددتُها، وأنا أحاول النوم، والنوم يجافيني، بيتنا عند أبي كان سقفه جذوع شجر، أمي دعت علي وقالت: "إن شاء الله ما تشوفي خشبات السقف"، كنت أضحك، وأقول: "أنا كلَّ يوم أراها"، وكنت كل ليلة أعدها، حتى لا يصدُق دعاء أمي، ويغلبني النعاس فأنام، كانت جدتي تقول لها: "حرام، يا بنتي، لا تقطعي بنصيبها، قد يكون دعاؤك في ساعة استجابة"، لم أكن أفهم كلام جدتي، ولا دعاء أمي، عندما تزوجتُ فهمتُ كل شيء، كنت أنظر إلى خشبات السقف، وأبو العز فوقي، وأنا أضحك، يسألني، فأقول: "أمي دعتْ علي ألا أرى خشبات السقف، والآن أراها"، فيشدني إليه، ويجعلني فوقه، ثم يقول: "الآن سأراها مثلك، هذه الخشبات أنا حملتها على

كتفي، خشبة خشبة، وبنيتُ لك هذا البيت، كانت ثلاثين خشبة، لكن إحدى الخشبات كانت ضعيفة، فأهملتها"، ويحكي لي: "أبي كان يريد بناء بيت لي سقفه من حديد وإسمنت، ولكن جدي أصرَّ على أن يكون سقفه من خشب، وجدرانه من حبتين من حجر أبيض، وبينهما رَدْمٌ بعرض حبة، جدار من ثلاث حبات، بارد في الصيف، دافئ في الشتاء، كل بيوت القرية سقوفها صارت من إسمنت، وجدرانها من قرميد بلوك، هي نار في الصيف، زمهرير في الشتاء، إلا بيتي".

وأهزه من كتفه، أبو العز، السقف سينهار.

ويستدير نحوي، ويشدني إليه، يداه قويتان، تحملان الحجر، وتعركانه، فكيف وأنا العجوز مثله، لا، أنا ما زلت في الستين، هي أجمل سنوات عمري، السقف سينهار، وأهزه:

– يا أبو العز.

ويرد، وهو يضمني إليه:

–لا تخافي، وضعتُ فوق جذوع الشجر ألواح الخشب، وردمتُ فوقها أكثر من نصف ذراع من التراب، وصبيتُ فوقه صبة إسمنت أسود ناعم، لا تخافي.

قطرات الماء تنسكب على وجهي، أتلمّس اللحاف، يا إلهي.

– أبو العز انهض، الغطاء غرق بقطرات المطر النازلة من السقف، قم اسمع صوت المطر، المزراب لا صوت له، قم

الطبيب نصـــح لك ألا تحبس البول، قم على الأقل لكي تتبول، بعدها اصـــعد إلى الســـطح، خنقتني بيدك على عنقي، كســـرت ضـــلوعي، هل أنت في حلم، وترى نفســـك تحمل خمس بلوكات، والله حطمت ضلوعي، انهض السقف سينهار.

ويسرع إلى الحمام، وهو يضحك.

– الله يديمك يا أم العز، أيقظتني، وإلا كنت....

ويضحك، يقهقه، مثل الرعد.

– اصعد إلى السطح أولًا، وبعدها اذهب إلى الحمام.

– رأيت نفســـي كأني في شـــارع الحمرا في بيروت، وأقف إلى جوار ســـيارة، وأهم بالتبول، ولكنك أيقظتني من هذا الحلم المضـــحك، الحمد لله، لا أعرف ما هذا الدواء، لن أتناول منه بعد اليوم أي حبة.

أقف في فناء الدار، تحت شجرة التوت، أنتظر خروجه من الحمام، والمطر ينسكب غزيرًا، ينصب، كأن في السماء مزاريب تهطل، حبات المطر تنصـــب على أوراق التوت لها نغم ناعم، والريح تداعبها، ريح ومطر وبرق ورعد، وآهات يرســـلها أبو العز تتســـرب إليَّ من شـــباك الحمام المفتوح على أرض الدار، لا أكاد أتبينها، هل هي آهات ألم وعســـر بول؟ أو هي آهات راحة واسترخاء.

"هنا تحت شجرة التوت، اقترح جدي أن يكون بناء البيت"، هكذا قال لي أبو العز، ثم أخبرني أن جدَّه قال له: "غدا عندما

تتزوج، تصعد أنت وزوجتك في الصباح الباكر إلى سطح البيت، تقطف من أغصانها الدانية حبات التوت الأبيض الشهي، وتطعم زوجتك بيدك، ويمكن أن تربي زوجتك على أوراقه دود القز، وتصنع لك منديلا من حرير".

أحببت التوت، كنت أنا أقطف له حبات التوت وأطعمه بيدي، لكن لم أحب دود القز، مجرد ذكر اسمه يجعلني أنفر منه، لم أحاول حتى تربيته.

لكن فتنني المزراب الحجري الأبيض، يمتد خارجًا من السطح بطوله الساحر، وهو يطل برأسه على فناء الدار، كم كان المطر يتدفق منه وينصب غزيرًا، ويهدر سيلًا، لماذا هو مسدود الآن؟

أبو العز في الحمام يرسل الآهات، سأصعد السلم، لن أنتظره، لكن أحتاج إلى مَنْ يمسك السلم من أسفل، كي لا ينزلق.

يد أبو العز من ورائي تشدني.

– انزلي، يا حرمة، جئت، أنا سأصعد.

– احذر، الدرجة قبل الأخيرة نخرة.

– أعرف، لا تعيدي عليَّ هذا الدرس، كل مرة تسمعينني هذا الكلام: درجات السلم نخرها السوس، ما قصدك؟ أنتِ ما عندك علم، ألف مرة قلت لك: هذا السلم من خشب الزان، أموت أنا ويبقى هو حتى أحفاد أحفادي، أنا وأبي وجدي نجرناه من خشب الزان.

– أنا أخاف عليك.

– لا تخافي، أصعد في بيروت على سلم من ثلاثين درجة، وفوق ظهري سبع بلوكات، وزنها أثقل منِّي أنا، ولا أحد يشفق علي.

– ليتني أكون معك، في بيروت، أمسك لك السلم من تحت.

يلتفت يضحك:

– لو كنت هناك تحتي تمسكين السلم، كان أغمي عليك.

وتضحك:

– لا، وأنتَ تراني من فوق، كنت وقعت.

– إذا وقعت فما في غيرك، أقع فوقك.

– عجِّل يا أبو العز، الله يرضى عليك، غرقنا بالمطر، ثيابي لصقت بجسمي.

– أحلى.

فناء الدار والجدار والأرض وشجرة التوت تضاء بشرر البرق، لمحة خاطفة من أحمر باهر، ويقعقع الرعد، وتنكسر تحت قدم أبو العز الدرجة قبل الأخيرة، ويتمسك بالمزراب، يتعلق به.

وتصرخ

– أبو العز، المزراب سيسقط أو ينكسر.

المطر ينســـكب، ينصـــب، وأبو العز يحاول إزالة القش والحجارة والأوســاخ من الفتحة في المزراب، ســطح الغرفة بحيرة، بدأت تطفح، والماء ينسكب منها على الجدران.

– يا أبو العز، سأحضر لك سطلين أو ثلاثة من المطبخ، لتغرف الماء من فوق السطح.

– لا، لا، يا أم العز، مجرى المزراب مســدود بأعشـــاش الحمام، الله يلعن الحمام والأعشـــاش، وتراكم فوقه التراب والغبار والأوراق اليابســة للشــجرة، والمطر تأخر، ومع هذه المطرة، صــار هذا الركام صبّة إسمنت.

– والحل، يا أبو العز؟

– هـاتي من المطبخ المطرقـة والإزميـل، مثلمـا قـال لي الطبيب، هذا يحتاج إلى تجريف.

وألتفــتُ ذاهبــة إلى المطبخ، وتزلزل الأرض من تحتي، قعقعة وسقوط هائل وكتلة ضخمة كسرت الأرض وهزتها.

المزراب والسلم على الأرض، وأبو العز واقف على قدميه، أذهل لا أصدق، أُسرِع إليه، أضمُّه إلى صدري، وينهمر فوقنا كل ما كان فوق السطح من ماء.

معطف فرو أبيض... كالقمر

فتحتْ باب السيارة، رمتْ خارجا بالمظلة التي مزقتها الريح، ألقت بنفسها في المقعد الخلفي، أغلقت الباب بقوة، وهي تقول:

- سأعطيكَ كلَّ ما تريد، أرجوك، بسرعة إلى فيلات الحي الغربي.

وأنطلقُ بالسيارة تحت مطر نيسان المتدفق، أضواء المصابيح تتخلَّل حبات المطر الكبيرة والمنهمرة بغزارة، كخيوط في ملاءة حريرية، قليل من العائدين إلى بيوتهم متأخرين بعد منتصف الليل على الرصيفين يهرولون أو يتراكضون، والمظلات تطير من أيديهم، وهم يحاولون الحذر من رشاش الماء المتطاير على الجانبين من عجلات السيارات، الأضواء الصفراء لمصابيح الشارع تنهمر مع المطر، تنسكب على السيول المتدفقة فوق الإسفلت، نشيش العجلات وهي تغوص في السيل نغم شهي، عجلات السيارة تنتشي، تطفئ وهجها، وهي تنغمر في السيل.

وقفتُ فجأة قبالتها، وهي تلوح بضوء هاتفها الجوال، ترسل نداء استغاثة، معطف الفرو الأبيض يعلو ركبتيها، مثل لحن هادئ في هذا الجو الخصب، هي اللحظة الجميلة التي أرجع فيها إلى البيت مسحورًا بهدأة ما بعد منتصف الليل، وأم كلثوم تشدو لي أنا:

هذه ليلتي

وحلم حياتي

عطر مختلف يملأ فضاء السيارة، هو إيقاع ينسجه عرق جسدها الساخن، ونداء الفرو المبتل بالمطر، وعزْفُ شعرها وهي تنثره على كتفيها بحركة رشيقة، تتناثر منه حبات نديَّة، تتطاير رذاذًا ناعمًا يدغدغ مؤخرة رأسي، هي رشة عطر، ولا أبهى منها ولا أجمل، ولا أنسى المظلة التي رمتها خارجًا قبل دخولها السيارة، فحملتها الريح، وطارت.

المطر يسح على الزجاج، والمساحتان تعجزان في حركتهما السريعة عن إزاحة السيل المنسكب.

أخترق المطر والسيل والأضواء.

مؤشر الوقود يميل كليًّا نحو الحد الأدنى، هل فيه ما كفيني للعودة من الحي الغربي في أقصى المدينة إلى الحي الشرقي؟ المطر ما يزال ينهمر، نفد الوقود، ويتوقف المحرك، وألتفت إليها، ننام معًا الليلة هنا، النوافذ والأبواب مغلقة، ونحن تحت المطر، وهو يسحُّ فوقنا، يغسلنا، به نستحم، من غير أن نبتل، أنت لي الليلة، وأنا لك، المطر جمعنا، شهر نيسان هو ميلادنا معًا.

- أرجوك، لا تسرع، أخشى خروج سيارة طائشة من شارع فرعي في هذا الليل.

أنظر في المرآة، عينان سوداوان مكحولتان، ترف الأهداب مثل نغم نهاوند معتق، وصوت يغلبه السهر والنعاس والنشوة، لامرأة في الأربعين.

ليس سواي أنا الطائش، هذه هي متعة القيادة في هذا الليل، لأنك معي، أنا الطيش وأنت الصواب، المطر السيل البرق الرعد الأمطار الغيوم القمر الغائب في السماء هي فرحتنا في هذه الليلة، كوني لي، ولك أكون، عبق جسمك ينعشني، صوتك يغريني، صمتك يغريني أكثر، تستسلمين لي.

صوتك مطر آخر، ناعم، قطراته عطرة، صبيها في قلبي، ولتصمت أم كلثوم، وأمد يدي إلى المسجل.

- لا تغلق المسجل، أحب هذه الأغنية.

المطر لي، المطر لنا، هو نعمة، نحن معًا في فلك نوح، ولتغرق المدينة كلها، هي لحظة خلق جديد، أنت حواء الجديدة، وأنا آدم الأول، سنعيد للبشرية خلقها الجديد، ها أنذا أخرج من الشرق ومن الغرب، من أقصى المدينة ومن أدناها، أخرج إلى الطريق السريع، خارج المدينة كلها، سألتف بك حول الأرض كلها، لنصل أو لا نصل، إلى حيث نريد أو لا نريد.

- أحسنت باختيارك الطريق الدائري، لا تخف، إذا خرج لنا قطاع الطريق فعندي هنا في الحقيبة مسدس.

صوتك نغم، يكفيني لحنه، لا دورية ولا قطاع طريق، أنت وحدك الكل في الكل، في هذا السيل لا معنى لكل تلك الكلمات،

نحن في الماء، بل ها نحن في بحيرة، نعوم، نغرق، الماء يغمرنا، ندخل في حياة جديدة، أنا وأنت توأمان، والسيارة هي أمنا، نحن في رحمها، سنولد أو سنموت.

- أختي تسكن في الحي الشرقي، كنت في عيد ميلادها، ما توقعت هذا التأخر، حي بائس، بعيد، لا تدخله سيارات أجرة، ساعة وأنا تحت المطر أنتظر.

اغتسلت السماء والأرض والأشجار، والبشر نائمون، أو في زوايا البيوت أمام شاشات التلفاز محنطون، لم يغسلهم المطر، تتوقف المساحتان، ويلتمع الزجاج، يتألق ضوء القمر، الكون كله مغسول، مثل معطفك الأبيض، ما هذا البهاء، أرى عينيك في المرآة، نغم آخر من مقام البيات.

نستحم الآن بضوء القمر، أخاصرك، تلفين يدك حول خصري، ونمضي معًا، متلاصقين، أشدك إلي، وتشدينني إليك، يضيئنا القمر بنوره الأبيض، نتألق.

- أنزلني هناك، عند الفيلا الخامسة، بعد مصباح الشارع.

القمر يميل نحو الأفق الغربي، أحمر كقرص العسل.

تنزل، تلف أمام السيارة، تأتي نحوي، تقترب من النافذة، تفتح أمامي حقيبة يدها، مسدس فضي أبيض يلتمع، رزمة نقود في العمق من الحقيبة، تمتد يدها إلى الرزمة.

- أختي الكريمة، لن آخذ أي شيء، أنا لست سائق أجرة، هذه سيارتي الخاصة.

وجهها عبر النافذة يقترب مني، أنفاسها العطرة تغمرني.

- تفضلْ، أسقيك فنجان قهوة، قهوتي مميزة.

- أتمنى ذلك، لكن، في البيت من ينتظرني، أمي وزوجتي والأولاد.

وأنطلق بالسيارة، وأم كلثوم تشدو:

هذه ليلتي ...وحلم حياتي.

رحلة مع شركة الغد

ســاحة الحرية متألقة، والحركة فيها نشــطة، وهو يراها من نافذة السيارة، ربما منذ عشر سنوات لم يمر بها، أو لم يقصدها، ركن إلى البيت، لا يخرج منه ليلا إلا قليلا، مكتفيا بمتابعة التلفزيون، أو قراءة رواية، أو تصفح جريدة، حقًّا السهر في الخارج ممتع، والليل جميل، أين أيام الشباب والسهر والعودة إلى البيت في وقت متأخر من الليل.

وقفت ســيارة الأجرة إلى جوار الحافلة العملاقة، نزل من سيارة الأجرة، ونزلت بعده زوجته، مدَّ إليها يده يساعدها. الحافلة شامخة، مدهشة، فخمة، من طابقين، جديدة، منذ ثلاثة أشهر فقط وضعت في الخدمة، في الموسم السياحي مع بداية الصيف، أضواء الشوارع والساحة تنعكس عليها، فتزيدها تألقًا، الإضاءة الخافتة في داخلها تكشف عن مقاعد عريضة، يبعد بعضها عن بعض بمسافة مريحة، واضح أن فيها مطبخًا وحمّامًا.

لف حولها، هو وزوجته، بخطى هادئة، هما أول القادمين.

الرحلة ســتنطلق في الحادية عشــرة والنصــف، على المشتركين في الرحلة التجمع في الحادية عشرة.

وقف على الرصيف، وقفت إلى جانبه زوجته، ما من أحد في الساحة غيرهما. قالت له:

– هذه ضـــريبة مَنْ يلتزم بالمواعيد، قلتُ لك خرجنا من البيت مبكرين جدًّا، أنت دائمًا تعاندني ولا تسمع كلمتي.

سيارات كثيرة تعبر الساحة، هسيس العجلات يملأ أذنيه، يضجر، ركبتاه تؤلمانه، ينظر حواليه، بحثًا عن مقعد، يستند إلى عمود المصـــباح الكهربائي، في الحادية عشـــرة والربع بدأ بعض المشتركين في الرحلة بالتوافد، حقائب وأكياس.

لا أحد من عمال الشركة، ولا مندوب الجمعية، ولا السائق، فقط الحافلة جاثمة كأنها تمثال للعرض، للدعاية، للزينة، يتلفت حوله، يبحث عن شخص يعرفه.

– لماذا لم نحضـــر معنا حقيبة فيها بعض الطعام وزجاجة ماء؟

– هل نســـيت؟ قرأنا النشـــرة المرفقة بتذكرة الرحلة، ممنوع إحضار الأطعمة، وفي برنامج الرحلة إفطار وغداء وعشاء.

– في النشـرة إفطار وعشـاء فقط، لا يوجد غداء، انظري، كلهم أحضروا معهم حقائب صغيرة وكبيرة.

الحادية عشـرة والنصـف، وما يزال المشـتركون في الرحلة يتوافدون، ولا أحد يظهر من ممثلي الشركة أو السائق أو المرافق.

– أتمنى القعود في الطابق العلوي.

– الطابق العلوي مخصـــص للباحثين والعلماء والمرافق والطبيب، هل نسيت ما هو مسجل أيضًا في النشرة.

– لماذا أنت متوترة.

– أنت المتوتر، لا أنا.

سيارة صغيرة تقف، ينزل منها شاب، ومعه رجل في الخمسين، أظن هو السائق، لا شك، والشاب هو المرافق، إن لم يخب ظني.

الشاب يحمل قائمة بأسماء المشاركين في الرحلة، يحييهم، يبدأ في قراءة الأسماء، يضجر، اسمه تأخر، يصعد إلى الحافلة معظم المنتظرين، ويسمع اسمه، واسم زوجته:

– يا ابني، أنا رجل عجوز، ورقم مقعدي ومقعد زوجتي٢٢ و٢٣ مع أنني أول من سجل اسمه في الرحلة، والمقاعد الأخيرة متعبة.

– يا عمي، هذا توزيع مدير الشركة، أنا لا علاقة لي بالتوزيع، والحافلة حديثة، وكل المقاعد مريحة، ومقعدك في الوسط.

يصعد إلى الحافلة، يمشي في الممر بين المقاعد مشية هادئة، يتفرس في الوجوه، لعله يعرف أحدًا، وجوه متعبة، حفر الزمن فيها خنادق عميقة، وعيون أحاطت بها هالات من السواد، حتى الشباب منهم والصبايا، أجفان أثقلها النعاس، أحدهم يفتح فمه إلى أقصى ما يستطيع، يتثاءب، ويرسل صوتًا: "إيه"، ولدى وصوله المقعد رقم ٢٢ يسمع من ورائه صوت شخير، أحدهم نام، لا أحد ينام في مثل هذا الوقت المبكر، انتظر على الأقل حتى تمشي الحافلة، يقدم زوجته، إلى جوار النافذة، يؤثرها على نفسه،

يعرف أنها تحب القعود إلى جوار النافذة، لتستمتع بالمناظر في الطريق.

ما يزال الركاب يمرّون أمامه متجهين إلى عمق الحافلة، عجوز شائخ ترتعش يداه وقدماه، يستند إلى مساند المقاعد وهو يمشي ببطء، لماذا يشارك هذا في الرحلة؟ كيف سيصعد درج القلعة، وكيف سيرقى إلى البرج؟ ولكن هل حالي أنا أفضل من حاله؟ يلتفت إلى زوجته يقول لها:

– كل العتب عليك، أنت حثثتني على الاشتراك في الرحلة، هل نحن بحاجة إلى التعب في مثل هذا العمر؟

– انظر، كثير من المشاركين عجائز، مثلك، وأكبر منك.

شاب وصبية يدخلان في الممر، يدا الشاب تحيطان بها، يحتضنها، يتقدمان ببطء، يلتفت، يراهما يستقران في المقعد المزدوج الأخير، يلتفت إلى زوجته يقول لها:

– الرحلة لهؤلاء الشباب، ليست لنا، وهل لاحظت؟ مكانهما في المقعد الأخير، هناك يخلو لهما الجو.

تلكزه بكوعها:

– وهنا يمكن أن يخلو لنا الجو، بعد قليل ينام الجميع، وتُطفأ الأضواء، الآن خطر على بالك الجو، ماذا أقول؟

السائق يأخذ مكانه وراء المقود، فتحات فوق المقاعد تبدأ بضخ هواء بارد، الهواء بارد جدًّا، يقشعر بدنه، يمدّ يده إلى الفتحة التي يتناثر منها الهواء البارد فوق رأسه تمامًا، يحاول أن يجد آلية

إغلاقها، أو توجيه فتحتها، يده ترتعش، لكنه يفلح أخيرًا في إغلاق فتحتها نصف الإغلاق، فضاء الحافلة يزداد برودة، حقيقة نحن في الصيف، ولكننا الآن في الليل، والجو بارد، ولا ضرورة لهذه الدرجة العالية من التبريد. يرفع يده، يشير إلى المرافق، يرجوه أن يطلب من السائق تقليل درجة التبريد، لكن لا يجد أي استجابة. ينظر إلى ساعة يده، الثانية عشرة إلا عشر دقائق.

الأبواب تغلق، المرافق يرفع إلى فمه لاقط الصوت، يتكلم:

– باسم شركة الغد للرحلات العلمية، أرحب بكم، سننطلق الآن فورًا، وسنمر بمركز تجمع لفريق علماء الآثار والطبيعة والنباتات والغابات والكائنات الحية، ليرافقونا في هذه الرحلة، رحلة علمية ترفيهية، ليشرحوا لنا كل ما سنزوره ونراه، وسيرافقنا طبيب وممرض، للحالات الطارئة لا سمح الله، وسترافقنا ثلاث مضيفات، يقدمون لكم وجبات في الطريق، الحافلة مزودة بمطبخ، وبحمام، أهلا بكم في رحلات الغد المنتظمة، طبعًا، سنزور القلاع، والجبال، والسهول، والغابات، وسنرى الآثار، وسنتعرف على أنواع الأشجار والنباتات، وستركبون في التلفريك الواصل بين...

يصمت يلتفت إلى السائق، يميل عليه، ثم يتابع كلامه:

– اعذروني، السائق يعلمني أن التلفريك قيد الصيانة، ولن نتمكن من الصعود فيه، أرجو لكم رحلة موفقة، وممتعة.

وتنطلق الحافلة. في مقدمة الحافلة وفوق السائق تلفاز، وفي منتصفها تلفاز، يبدأ السائق في بث فيلم ترفيهي. تعلو أصوات:

– أغلق التلفاز، نريد النوم.

– لا، اتركه، نريد التسلية.

– ضعه على قنوات إخبارية، لا نريد الأفلام.

في مواجهته تماما شاشة التلفاز، يحس بصداع، يغلق عينيه.

إلى أين تمضي بنا الحافلة، حتى الآن لم نصل إلى مركز تجمع العباقرة والعلماء ليرافقونا في الرحلة، عشرون دقيقة، ونحن نلف وندور في المدينة، في أي حي من أحيائها هم متجمِّعون.

وأخيرًا، تهدئ الحافلة من سرعتها، وتقف، ينظر، من النافذة:

– هذا مبنى المدينة الجامعية.

ثلاثة شبان فقط، يراهم من وراء زجاج النافذة، يصعدون إلى الحافلة، أين علماء الآثار والنباتات والحشرات، أين المضيفات، على الزجاج من الداخل تنعكس صورة الركاب، حقيقة وجوه متعبة، حتى وجوه الشباب والصبايا.

وتنطلق الحافلة. المرافق يرسل صوته عبر مكبر الصوت:

– باسمكم جميعا نرحب بالفريق المرافق لنا، هم نخبة من طلاب الجامعة، في الدراسات العليا، يحضرون رسائل الماجستير

والدكتوراه، في الطب والهندسة والآثار، اعتذر البقية بسبب أعمال ميدانية كلفتهم بها الجامعة بشكل مفاجئ، باسمكم نرحب بالشباب الواعد، جيل الغد، في شركة الغد.

ما هذه الرحلة؟ لماذا لم يقلْ من البداية سيرافقنا ثلاثة فقط من طلاب الدراسات العليا، وسوف نمر بهم في المدينة الجامعية؟ لماذا يسميهم أدلاء وخبراء؟ ربما هم مشاركون مثلنا في الرحلة؟ وأين المضيفات؟

وتغادر الحافلة المدينة، بعيد الثانية عشرة بقليل، تدخل في الفضاء الليلي المعتم، يغلق السائق التلفاز، ويخفف الإضاءة داخل الحافلة، وهي تنطلق بيسر، كأنها تسير على وسادة من هواء. حقيقة رحلة ممتعة، ما أجمل الحضارة، والتقدم، دفء ناعم لذيذ، زوجته تلتصق به، ترخي رأسها على كتفه، التبريد أصبح منعشا، متناغمًا مع الدفء، يغمض عينيه، يودّ لو يغفو، أصوات غمغمات وأحاديث ناعمة، يرافقها شخير من هنا وهناك، تتشكل موسيقا الليل، مع انسياب الحافلة وهي تنزلق في سرعة، ليتها تسرع أكثر، السفر في الليل متعة، وراء الزجاج لا شيء، فضاء ليلي معتم، لا قمر ولا نجوم، هي حالة انعدام الوزن، حالة تحليق، ليتنا كنا في المقعد الأخير.

حركة ارتجاج، تقف الحافلة فجأة، تهتز بعنف، كأنها طائرة هبطت اضطراريًّا في حقل بالأمس خططه المحراث. وتعلو

الأصـــوات: يا لطيف، ماذا حصـــل، حادث، هل انقلبت الحافلة، لماذا هذا التوقف المفاجئ؟

صوت المرافق يملأ فضاء الحافلة:

– الزموا أمـاكنكم، رجـاء، عطـل مفـاجئ في المحرك. سنتصـل عبر الهاتف الجوال بالشركة ستصـلنا فورًا حافلة أخرى، ونتابع الرحلة بأمان وسلام.

يفتح السـائق الباب، ينزل أكثر الركاب، ولا سيما الشـباب، ينزلون حقائبهم، تمر ســـيارات وحافلات مغادرة المدينة أو راجعة إليهـا. يعلو اللغط والكلام. يتمشـــى بعض الركـاب في الحقـل المجاور، بصيص أحمر ترسله سجائر الركاب.

ينظر في ســاعة يده، وإذا هي الثانية عشــرة والربع، نحن غادرنا المدينة في الثانية عشرة، ربع ساعة فقط ابتعدنا عنها، ربما لم نقطع ســـوى عشـــرين كيلو مترًا، أو ربما أقل، أي ما زلنا في حدود المدينة.

ينزل مع زوجته، يتمشى مع الآخرين.

الشاب والصبية اللذان مرا به يقتربان منهما، الشاب يضـع حقيبته على الأرض أمامه، يقول له:

– تفضل يا عم، هذه حقيبتي اقعد عليها، الوقوف يتعبك.

الشابة تقترب من زوجته تقدم لها حقيبتها لتقعد عليها.

الشاب يتكلم:

– هذه، والله، ياعم، ثالث مرة تتعطل فيها الحافلة، تقريبًا في نفس المكان، المرة السابقة أبعد قليلا، هناك، عند محطة الوقود، هل ترى تلك الأضواء القريبة نسبيًّا؟ هناك تعطلت في المرة الماضية، لا أعرف كيف تتعطل وهي جديدة؟

تعلق الزوجة:

– صناعة صينية سيئة فاسدة.

الزوج يتكلم:

– لا أصدق هذا، يصنعون الأقمار الصناعية، ولا يحسنون صناعة حافلة؟

وتتوجه الزوجة إلى الشاب باللوم:

– ما دمت عرفت كل هذا، لماذا اخترت هذه الشركة؟

وترد الصبية:

– وهل يوجد شركة أخرى غيرها؟ دلّيني على شركة ثانية.

الزوجة تضيف:

– أنا لو كنت في مكانك يا ابني، كنت ما حجزت ولا شاركت في الرحلة، كنت قعدت في البيت، واسترحت.

الزوج يضحك، يعلق:

– صدقت، هذا الكلام يناسبك، تمامًا، يناسبنا نحن الاثنين، وليتنا حقيقة ما خرجنا، أما هما، خطيبان، فالرحلة أجمل فرصة لهما، لو كنت شابا مثلهما، كنت شاركت في كل أسبوع، وكنت اخترت المقعد الأخير.

حافلة تقترب، راجعة إلى المدينة، يشـير إليها رجل عجوز مع زوجته، تقف، يصعدان فيها عائدين إلى المدينة.

تمر ربع ساعة، والحافلة لا تصل.

أحدهم يتكلم في جهازه الجوال رافعًا صوته في هدأة الليل:

– ابني هشـام، الله يرضـى عليك، اركب سـيارتك وتعال فورًا، نحن انقطعنا في الطريق، لم نصل إلى محطة الوقود رقم ٥، أقل من ١٥ كيلو مترًا خارج المدينة، ننتظرك.

يلتفت إلى زوجته، يسألها:

– ما رأيك؟

– اتصـل بحامد، اطلب منه أن يأتي بسـيارته ليرجعنا إلى البيت.

– أمر مزعج حقًّا، نحن ما طلبنا منه توصـيلنا إلى مركز تجمع الركاب، أخذنا سـيارة أجرة، كيف نطلب منه الآن أن يقطع عشرين كيلو مترا ويأتي إلينا خارج المدينة؟

– ماذا نفعل؟ هل عندك حل آخر؟ اتصل به.

يرفع الهاتف الجوال، يتصل بابنه يطلب منه أن يأتي.

الوقت يمر، يضجران.

بعد مضي نصف ساعة، تصل حافلة، عادية، عادية جدًّا، يسـرع إليها الركاب يحملون حقائبهم، يلتفت إلى زوجته، يمسـك بيدها، يتجه إلى الحافلة، يقول لها:

– هيا، نتابع الرحلة.

تدهش، تقول له:

– وابنك الذي اتصلت به؟

يضحك، يعلق، يقول:

– والله نسيت، سامحيني، لكن أشتهي متابعة الرحلة، سأتصل به، سأطلب منه ألا يحضر.

تعلق ساخرة، وهي تضحك:

– أنت اشتهيت متابعة الرحلة، مثل هذين الشابين، عرفت.

يرفع الهاتف الجوال، يعيد الاتصال بابنه، الهاتف يرن، ولا رد، ينتهي الرنين، يعاود الاتصال، الهاتف يرن، ولا رد.

المرافق يقول له:

– هيا يا عم، الحافلة ستنطلق.

– شكرًا، اتصلت بابني، وسيأتي بسيارته ليعيدنا إلى البيت.

ويصمت، ثم يسأله:

– من صاحب شركة الغد؟

– هذه الشركة مساهمة، يساهم فيها كثير من المؤسسات والتجمعات النقابية والاتحادات وبعض الأفراد من المتمولين.

وتنطلق الحافلة، تتابع الرحلة.

تصل سيارة صغيرة، يتقدم منها الرجل العجوز مع زوجته، يتنبه إلى وقوفه، يلتفت إليه، يقول له:

– تفضـل، يا أخي، أنت وزوجتك، سـنوصـلكم إلى البيت، في السيارة متسع.

. أشكرك، للتو اتصلت بابني، سوف يأتي.

يتمشـى هو وزوجته، مبتعدين عن الحافلة الحديثة المركونة إلى جانب الطريق.

يتحدّث إلى زوجته:

– ليتنـا رجعنـا في حـافلـة عـابرة، ليتنـا تـابعنـا الرحلـة في الحافلة العادية جدًّا، ليتني لم أتصل بابني حامد.

– قل: ليتنا من البدء لم نشترك في هذه الرحلة.

ترسل آهة طويلة، تعلق:

– ما أجمل رحلات أيام زمان، والحافلة القديمة، لا تكييف ولا تلفاز ولا أعطال، خسارة، حافلة جديدة، وتتعطل.

– لا تقولي هذا، رحلات اليوم أجمل، المشـكلة ليسـت في الحافلة.

– أين المشكلة؟

– لا أعرف.

صـــوت هدير محرك، يلتفت، وإذا الحافلة الحديثة ذات الطابقين تنطلق عائدة إلى المدينة.

المدير صديقي

أنزل من السيارة، أتوكأ على ذراع ابني، وأنا أدخل باب المقبرة، أرفض أن أستعين بعصا، تستقبلنا المقبرة باسمة مشرقة، شمس الأصيل تطل من خلال غيمات بيض كأنها بجعات، الشعاع الذهبي ينتشر شعاعات شعاعات، نهرًا من ألق ونور ينسكب على الأرض، المقبرة تضج بالحياة.

– أخطأنا يا بني، دخلنا من الباب الشرقي، غرفة حارس المقبرة ليست هنا، هي هناك، عند المدخل الغربي، علينا اجتياز المقبرة.

شواهد حجرية بيض تنتصب شامخة في زهو، نظيفة بهية متألقة، كأنها صبايا في عرس يرتدين الثياب البيض ويتزاحمن وراء العروس، أضع يدي على شاهدة، أحسها دافئة، قد تشربت من الشمس الدفء، كأنها يد حنون، الأعشاب تعلو بطولها وتتمايل، رواها مطر نيسان، فأشبعها حياة وصبا، زهرات النرجس الأصفر أمواج وأمواج وأمواج، تتخللها شقائق النعمان، نغم صاخب يعانق نغمات هادئة، وفراشتان تتحاوران، سابحتين في شعاع الشمس، أيقظت الشمس الرغبة فيهما معًا.

ابني يحاول ألا يطأ فوق الصفائح الحجرية فوق القبور، يقدِّس حرمة الساكنين في الأعماق، هل يستحقُّون حقا هذا

التقديس؟ أراه يحار، هل يدوس على أعناق النرجس، أم على صفائح الحجر الأبيض الذي يلتمع فوق القبور؟

أنا من غير تردد أدوس فوق الصفائح.

قبور متزاحمة في فوضى، كأننا في سوق من الأسواق الشعبية التي تعقد في الأرياف يوم الخميس أو يوم الجمعة، شاهدة حجرة عالية، تغطي على أخرى قصيرة، وشاهدة مزخرفة تتباهى بطولها، وشاهدة متواضعة لا زخرف فيها ولا نقوش.

– هل رأيت؟ كأنه الزحام في قصر العدل.

– صدقت يا أبي، ولكنه زحام صامت.

على شاهدة حجرية بيضاء عالية تقف عصفورة، ذيلها يرقص، مثل وتر في عود، يهبط نحوها من عضن شجرة عصفور وهو يغرد، ولكنها تثب وتطير محلقة إلى الأعلى، فيسمو نحوها، يطاردها.

أرقام دونت على شواهد المقابر، أرقام بدهان أسود، بفرشاة غليظة، أرقام مدوَّنة بخط رجل أمي، لا يكاد يعرف حتى الأرقام، يده خشنة غليظة، رقم قبر أبي أحفظه ٤٤٤٠، رقم ذهبي، كأنما جاءه من الجنة، لا من الدنيا.

دك، دك، دق، دق، دك، دك، دق، دق.

هي نبضات قلب المقبرة، دقات ساعتها المتحركة التي لا تفتر لا تتوقف، دك، دك، دق دق.

– هل رأيت؟ يا ماجد، حتى في المقبرة لا يتساوى الناس، هذا قبر غني، وهذا قبر فقير، وهذا قبر طفل، وهذا قبر شيخ، وهذا قبر رجل ضنَّ عليه أولاده، فاكتفوا بصفيحة واحدة من حجر، وهذا قبر أولاد بررة، نضدوا فوق قبره سبع صفائح من رخام أبيض إيطالي، ورفعوا عند الرأس شاهدة، وأخرى عند القدمين، وهذه شجرة غرسها والد عند قبر ولده، وأظنه من قبل كان قد غرس شجرة يوم ولادته.

تنفحني روائح عطرة للمعسِّل المعروف الذي تنفحه النراجيل.

أمام غرفة حارس المقبرة مقعد عريض، يتكئ عليها غلام، أمامه نارجيلة طويلة، كأنها العروس، تتدلى من حافاتها لآلئ مزيفة وجواهر من كريستال زجاجي يتألق، والماء في الحُقِّ الزجاجي يقرقر، وسحابة من دخان معطر تعبق الأجواء.

أمير يزهو بعمر طويل أمامه سوف يحياه أميرًا على الأحياء هنا.

مع وصولنا إليه، ينفحنا سحابة عطر، كأنه يجود بها علينا، أو كأنه يباهي، وهو في جلسته كأنه في حديقة فندق غراند حياة.

أحييه، فيرد:

– ماذا تريد.

– أين والدك؟

– ماذا تريد منه؟ قل لي أنا.

– أريد رؤيته.

– آخر جمجمة بعتها قبل ساعة، إذا أردت جمجمة، تعال بُكرة، بعد هذا الوقت، قبل المغرب.

– لا، أريد والدك في موضوع آخر.

ما يزال متكئا، كأنه في الفردوس، وهو ينفحنا سحابات معطرة.

بدأت أحس أنها روائح مزعجة، كأنها من معسل بخس الثمن، كأنها من معسل يتعاطاه هنا الموتى، وهل يتعاطى الموتى النارجيلة في قبورهم؟ كيف خطر لي هذا؟ لا أعرف.

ضئيل الجسم، نحيل، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، أصفر اللون، شاحب، كأنه نسناس، وجهه مملوء بالنمش الأصفر، يلف رجلا على رجل، ينظر إلينا بعينين كأنه يحدق في الشمس، وجهه متجعد ومنكمش كأنه ابتلع ليمونة حامضة جدا، فانكمشت ملامح وجهه وتجعَّدت، يلوي فمه، وهو يتكلم، وخرطوم النارجلية في زاوية فمه.

– لا أريد جمجمة، أريد شراء قبر.

– أبي انتهى أمس من بناء قبر جديد، أسرع إليه، أظنه ما باعه، قبر واسع، كأنه قصر، فرش أرضه برمل بحري أحمر ناعم، كأنه ريش نعام، جلبه من الساحل خصيصا، نقّاه من الحصا، غربله ثم نخله، وجعل جدران القبر من السيراميك الوردي،

أنا ساعدته في وضع البلاطات فوقه، بلاطات مجوفة من الداخل ومزينة برسوم ورود وأزاهير، كأنك في قاعة العرش، تعلوك قبة مزخرفة برسوم ورود وأزاهير.

– وأين أبوك؟

– أبي هناك أظنك سمعت صوت الدك، يعمل في حفر قبر جديد.

دك، دك، دق، دق.

نسير مهتدين بالصوت، وهو يعلو أكثر فأكثر، ونحن نقترب منه.

– قبر أبي، جدك يا ماجد هناك، في الجهة الجنوبية، هل تتذكر مكانه؟

– طبعا، ولا أنساه.

يتوقف صوت الدق.

مجرفة من حفرة، تعلو، وترمي التراب جانبًا، ورأس صغير أشيب الشعر، يظهر من داخل الحفرة ثم يغطس فيها.

يرمي بالتراب نحونا.

– السلام عليكم.

المجرفة ما تزال ترمي بالتراب نحونا، ورأس يظهر ثم يغطس في الحفرة، ونحن فوقه، ظلي وظل ابني يسقط عليه، وهو لا يبالي، ما يزال يرمي بالتراب.

يرفع رأسه نحونا، عجوز في السبعين، عروق يديه نافرة، جبينه ضيق، شعر رأسه كثيف، لم تسقط منه شعرة، ينظر نحونا بعين، والعين الأخرى يزمُّها، كأنه يرى من خلال منظار مقرب، يلوي فمه، شفتاه رقيقتان، فمه كأنه قوس محدبة، كأنه ابنه، بل كأن ابنه نسخة مصغرة عنه، وجه أعرفه، كأنني رأيته من قبل، لا أعرف متى أو أين؟ ليس غريبا، ملامحه الحادة لا أنساها.

– ما عندي قبور للبيع، روحوا زوروا قبور موتاكم وانصرفوا بسلام.

– وهذا القبر.

– بعناه لصاحبه.

– قبر أبي قريب منك، رقمه ٤٤٤٠، احفر لي بجواره.

– ما بقي في المقبرة أماكن لقبور جديدة.

– لكن قبر أبي هنا.

– هل من الضروري دفن الابن قرب الأب، أين قبر جدك وجد جدك، المقابر كثيرة، ابحث عن مقبرة غير هذه المقبرة.

أسأله مستاء:

– وهذا القبر؟

– هذا القبر لمدير مخفر الحارة هنا.

– والقبر المفروش بالتراب الوردي، وجدرانه من السيراميك الأزرق.

يرفع المجرفة نحونا:

– مـا عنـدي قبور للبيع، الله يرضـــى عليكم، روحوا، واتركوني في شغلي.

أمر بقبر أبي، نقف هنيهة، أنا وابني، نقرأ الفاتحة.

نمضي نحو الباب الشرقي، حيث تركنا السيارة.

الشـــمس بدأت تنحدر نحو الأفق الغربي، ريح قوية بدأت تهب، الغبار يثور، توشك أن تمطر.

في داخل السيارة أقول لابني:

– ما رأيك في رفع دعوى على حفار القبور، وتتولى أنت القضية؟

– وما جريمته؟

– رفض بيعنا أي قبر.

ابني يضحك، يعلق:

– لا يوجد نص قانوني تســـتند إليه، البيع وعدم البيع من حقه.

– نرفع دعوى بحجة المس بحرمة الموتى والنيل من القيم والشهادات العلمية العالية.

– ما هي حجتنا؟ وما الدليل على ذلك؟

– أنت ما قرأت ما كتبه فوق باب الغرفة وراء الولد صاحب النارجيلة.

– ما انتبهت، ماذا كتب؟

– بالدهان الأسود، وبريشة عريضة، وبخط سيِّئ، كتب: هنا مكتب معاون ملك الموت، وتحتها كتب: ماجستير في حفر القبور ودكتوراه في دفن الموتى.

مرة أخرى ابني يضحك، ويعلق:

– هذا مزاح، لا يحاسب عليه القانون، وهو غير موجه إلى شخص محدد.

– وبيع جماجم الموتى؟

– هو مجرد كلام من ولد مراهق، نحن ما رأينا الجماجم، ولا بعنا ولا اشترينا.

ابني يصمت، ثم يضيف:

– إذا أردت، القاضي الأول رجل نبيل، وعلاقاته واسعة، وبيني وبينه مودة كبيرة، كان أستاذي في كلية الحقوق، وأشرف على رسالتي للماجستير، ما رأيك؟ أعرض عليه فكرة التوسط لدى حفار القبور، هذا أفضل من رفع عشرين دعوى.

السماء تغيم، على زجاج النوافذ في الأدوار العليا من العمارات انعكاس لشعاع أصفر باهت كالموتى لشمس منحدرة إلى قبرها خلف الأفق، الغبار يعلو مع هبات ريح مزعجة، أغلق نافذة السيارة، السيارات متزاحمة، إشارة المرور الحمراء تبدو من خلال الغبار بنفسجية، أمامنا رتل طويل من السيارات، حركة السير بطيئة جدًّا، أربع مرات أضيئت إشارة المرور حمراء ثم خضراء، كأننا نسير في جنازة زعيم، سائق بجوارنا يريد أن يخترق الرتل،

يريد الدخول أمامنا، بسيارته السوداء الضخمة العالية ذات الدفع الرباعي وبنوافذها السوداء المعتمة يكاد يدوس فوق سيارة ابني الفيات الصغيرة.

السماء بدأت ترجمنا بحبات برد كبيرة.

الآن تذكرت الرجل الذي يشبه حفَّار القبور، حتى كأنه هو، لكن لا يعقل أن يكون هو نفسه، كان ذلك قبل سبعين سنة.

وأنا في الخامسة من عمري، أمسك أبي يدي، ومضى بي مزهوًّا فرِحًا إلى مدرسة النجاة، القريبة من بيتنا، وهو يحمل باليد الأخرى ملف تسجيلي في المدرسة أول مرة، خطواته واسعة وأنا أركض إلى جواره، لا أكاد ألحق به، وهو يسبقني.

دخلنا المدرسة، احتوتني بفنائها الواسع، بلاط أرضها أبيض نظيف، كانت مغسولة بمطر الخريف، وفي السماء سحابات بيض، تتخللها أشعة الشمس الذهبية، دخلنا إلى جناح الإدارة، تتألق فيه الجدران بلون السماء، وتنفتح النوافذ على الشمس، ثم احتوتنا غرفة المدير الطويلة، أدهشتني المقاعد المخملية الحمراء، وفي العمق منضدة طويلة مزخرفة ومذهبة تعلوها هواتف ثلاثة، استولت على أحاسيسي، وراء المنضدة، كان هو نفسه، أو كأنه هو، الآن تذكرت، كأنه نسناس صغير يقعد وراء المنضدة، وجه نحيل، نظر إلى أبي وقد زمَّ عينه اليسرى، كأنه ينظر في الشمس، وتقلَّصت عضلات وجهه، كأنه ابتلع

قطعة ليمون، وارتعشـــت شـــفتاه الرقيقتان جدًّا، لتنفرجا عن فم صغير، وتلجلج صوته:

– لا يوجد عندنا مقاعد شاغرة.

–وأين سأذهب بالولد؟

– لا أعرف، هذه مشـكلتك، خذه إلى الحي الشـرقي؟ هذه المدرسة خاصة بأبناء الحي الغربي.

– ونحن نسـكن هنا في الحي الغربي، بين بيتنا والمدرسـة مئة متر.

– وهل من الضـروري قرب بيته من المدرسـة؟! المدارس كثيرة، خذه إلى مدرسـة بعيدة، يمشـي في الصـباح، المشـي أجمل رياضة للأطفال.

ونخرج من المدرسة.

أبي يشـد بقبضـته على أصـابع يدي، يمشـي ببطء، ينظر في الأرض، وأنا أركض بجواره، أسبقه، أظن أني فرحت يومئذ، لا يوجد مقعد شاغر، إذن، لن أذهب إلى المدرسة، وينعطف أبي في شـــارع فرعي، ويلتقي برجل، جهم، طويل، عريض الكتفين، لا أعرفه، يتعانقان، كأنهما التقيا بعد غيبة عمر.

الرجل يتوجه إلى أبي بالسؤال:

– يبدو عليك التوتر والانزعاج، حتى صوتك متغيِّر.

ويحكي له أبي عن المدير، يضـــع الرجل يده على كتف أبي، وهو يقول:

– هذا هو المعاون، لا تهتم بكلامه، غدًا يكون ابنك في مقعده في المدرسة، المدير صديقي.

المؤلف ومؤلفاته

أ.د. أحمد زياد محبك
أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
عضو اتحاد الكتاب العرب

السيرة الشخصية:

من مواليد مدينة حلب في ١٠/٥/ ١٩٤٩

تخرج في قســـم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٢

حاز دبلوم الدراسات العليا في جامعة دمشق عام ١٩٧٣.

عين مدرسًا في ثانويات حلب عام ١٩٧٤.

عين معيدًا في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٧

نال درجة الماجســتير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١.

نال شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.

رفع إلى مرتبة أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٩٥.

عمل بالتدريس في جامعات تشــرين في اللاذقية وفي الحســكة ودير الزور.

أشرف على عشرات الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه.

النشاط الثقافي:

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣.

عضـــو هيئة تحرير جريدة الأســـبوع الأدبي من عام ١٩٩٧إلى عام ٢٠٠٠.

عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨.

حاز جائزة القصة القصيرة في المركز الياباني بحلب عام١٩٩٥.

حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام ١٩٩٧.

حاز جائزة جريدة الثورة بدمشـــق عن القصـــة القصـــيرة عام ١٩٩٨.

حاز جائزة الإبداع الأدبي بمدينة حلب عام ١٩٩٨.

أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠.

أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أســـبوع إلى الجزائر العاصـــمة ١٩٨٨ في زيارة اطلاعية.

عمل بالتدريس في قسم اللغة العربية في جامعة سبها في ليبيا وأسس الدراسات العليا فيها ١٩٩٠ – ١٩٩٤.

أوفدته جامعة حلب إلى فرنســـة ليحاضـــر في طلاب الدراســـات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام ١٩٩٤.

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ١٩٩٨_ ٢٠٠٠.

حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في اســـتوكهولم بالســـويد بدعوة من المعهد نفســـه عام ٢٠٠٠.

كرمتـه جمعيـة النقد الأدبي في اتحـاد الكتـاب العرب بدمشـــق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.

أوفدتـه جامعة حلب إلى جامعة عين شـــمس بالقاهرة بمهمـة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠٠٢.

عضـــو لجنة تحكيم في مســـابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شـــبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة حلب للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.

عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الرقمية) في القاهرة عام ٢٠٠٥، ودعي إلى القاهرة للمشاركة في حفل تزيع الجوائز.

عضـو أسـرة التحرير في موقع ديوان العرب ٢٠٠٨ والمسـتشـار الثقافي في الموقع.

حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام ٢٠٠٩

عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.

أوفدته جامعة حلب مرة ثانية إلى جامعة عين شـــمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام٢٠١٠.

عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام ٢٠١٢، ودُعِيَ إلى القاهرة للمشـــاركـة في حفل توزيع الجوائز.

رئيس تحرير مجلة بحوث جامعة حلب ـ سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١٥ـ ٢٠١٩

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ٢٠١٧ ـ ٢٠١٩.

رئيس فرع حلب لاتحاد الكتاب العرب ٢٠١٥ ـ ٢٠٢٢

حاز جائزة خير الدين الأسدي في حلب في القصة عام ٢٠٢٢.

المؤلفات المنشورة :

حركة التأليف المســرحي في ســورية، (دراســة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة.

من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٤ صفحة.

يوم لرجل واحد،(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦ ، ٢٠٠ صفحة.

المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة.

حجارة أرضنا، (قصص قصيرة)، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات.

الكوبرا تصنع العسل، (رواية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة.

بدر الزمان، (مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٠٤ صفحات.

حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة.

عريشة الياسمين، (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة.

دراسات في المسرحية العربية، (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة.

حكايات شعبية (نصوص ودراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩ ، ٧٧٠ صفحة.

دروب الشعر العربي الحديث (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة.

لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً)، دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠، ١٨٠ صفحة.

طعم العصافير (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١، ١١٢ صفحة.

قصائد مقارنة (دراسة ونصوص)، مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١، ١٢٥ صفحة.

دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة)، منشورات دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١، ٣٠٠صفحة.
العودة إلى البحر(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١، ١٥٣صفحة.
الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ٢٤٨صفحة.
انكسارات (بحوث ومقالات)، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤، ٤٤٠ صفحة.
الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ ، ٢١٦ صفحة.
متعة الرواية (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٣٤٨ صفحة.
من التراث الشعبي (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٧٦ صفحة.
وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٣٦ صفحة.
عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات. طبعة ثانية، دار اللغات بحلب، ٢٠١٢.
قصيدة النثر،(دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧، ١٢٥ صفحة.

قراءات في الشـــعر العربي الحديث، (دراســـة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧، ٣٠٠ صفحة.

نوافذ وشرفات، (مقالات)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفح

ريش نعام، (قصـــص قصـــيرة جداً)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١١٢ صفحة.

نجوم صـــغيرة، (قصـــص قصـــيرة جداً)، مطبعة الأصـــيل، حلب، ٢٠٠٨، ٨٠ صفحة.

الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشـــرين، (دراســـة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة.

دراسات في المسرحية العربي، (طبعة جديدة مختلفة كلياً) مطبعة جامعة حلب، حلب، ٢٠١٠، ١٧٥ صفحة.

حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١، ١١٢ صفحة.

نقد الســـرد، (دراســـة)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٤٤ صفحة.

فوق ســـطح العمارة، (مجموعة قصـــصـــية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٥٨ صفحة.

أبو معتز والكناريات (مجموعة قصـــصـــية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤، ١٩١ صفحة.

صـــورة القمر في الشـــعر العربي(دراســـة)، دار ليوان الربيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٤، ٥٠٤ صفحات.

المرأة المكان الشـــعر، في شـــعر عبد العزيز خوجة، دار ليوان الربيع للنشـــر، الرياض، المملكة العربية الســـعودية، ٢٠١٤، ٢٣٤ صفحة.

ما أزال أنتظر (مجموعة قصـص قصـرة جداً)، الشـارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥، ١٦٥ صفحة.

شـــقة على شـــارع النيل (رواية)، دار أمل الجديدة، دمشـــق، ٢٠١٨، ٤٧٤ صفحة.

نظرات متبادلة، (مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٨، ٢٢٩ صفحة.

الســـرير والمرآة، (مجموعة قصـــص)، وزارة الثقافة، دمشـــق، ٢٠١٩، ٣٠٠ صفحة.

شـــهريار يعترف، (مســـرحيات قصـــيرة)، وزراة الثقافة، دمشـــق، ٢٠٢٤، ٢٤٧ صفحة.

في انتظار فاتنة، (مجموعة قصـــص) طبعة خاصـــة، حلب، ٢٠٢٥، موقع فولة بوك.

المؤلفات بالمشاركة:

ســـتة كتب في اللغة العربية لغير المختصـــين لجامعات ســـورية (١٩٨٨.١٩٨٦)

خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)
كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف وتنسيق) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠. ٢٠١١)
عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤. ٢٠٠٧).
الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).
من أبراج قلعة حلب، (مجموعة قصصية مشتركة مع مقدمة نقدية) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٢٢.

عنوان المراسلة:
البريد العادي :كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية
البريد الإلكتروني : mohabek@gmail.com
هاتف المنزل : ٠٠٩٦٣ ٢١ ٢٦٤٢١٣٢
الهاتف الجوال والواتس: ٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

المحتويات

الوردة في مكانها ٥

جدتي بديعة ١٤

عصام...وكتاب الروح ٣٤

البكاء مرتين أمام قبر الجد ٤٤

القصاب وجاره.. وسيخ الكباب ٥٣

يوم عمل بهيج ٦٥

الأضواء كلها تغيب ٧٣

العجوز والقطة والكناري ٨٢

سبع شمعات...وشمعة واحدة ٨٦

الشجرة الكبيرة اليابسة ٨٩

محل لتصليح الساعات ٩٣

سقف البيت ٩٥

معطف فرو أبيض... كالقمر ١٠٣

رحلة مع شركة الغد ١٠٨

المدير صديقي ١٢٠

المؤلف ومؤلفاته ١٣١